الفصل الثاني

مصادر الثروات فيها

كان جمهورُ العربِ في الجاهلية يعتمدون على الرَّعي من حيث إنه أهمُّ مصدرٍ للحياة، حيث تتنقل القبائل العربية بآبالها وأغنامها وخيولها بحثاً عن المراعي ومواطن الكلأ والعشب، ويمكن القول بأن العربَ لم يكونوا يعيشون في الجاهلية معيشةً واحدةً، فهذه القبائل جميعاً توزعتها طبقاتٌ اجتماعيةٌ مختلفةٌ،فمنهم من اشتغل بالتجارة وطَوَّفَ في البلدان لأجلها،ومنهم مَن جعل صيدَ حيوان الصحراء شُغْلَه الشاغل، ومنهم من وقف حياته على التربُّصِ بأبناء جلدته،ومنهم مَن انتحل الصناعةَ أو عمل بالزراعة وهكذا.

واشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة شُهرةً واسعةً ـ لا سيما قريش ـ ، وكانت الجزيرة العربية تُمَثِّل بحراً واسعاً تخترقه قوافلُ الإبلِ في شِبْه مجموعاتٍ من السُّفُنِ تَمْخُر عبابَ هذا البحر الفسيح، وكانت مكة هي رائدة التجارة في الجاهلية، فقد تهيأت لها أسبابٌ سياسيةٌ ودينية واقتصادية جعلتها مركزاً هاماً للتجارة آنذاك، وكان في الجزيرة العربية طريقان عظيمتان للتجارة بين الشام والمحيط الهندي، ومن الطبعي أنَّ طرقَ القوافلِ في الجزيرة العربية كانت تتبعُ المسالكَ المعروفَة، حتى تضمن فرص وجود الماء،وفي الوقت نفسه تسلك طريقاً آمناً لكثرة مَنْ يَطرُقُه من الناس، وعلى هذا كان هناك طريقان رئيستان للقوافل: إحداهما تسير شمالاً من حَضْرَمَوْتَ إلى البحر على الخليج العربي، ومن ثَمَّ إلى صور، والثانية تبدأ من حضرموت إلى البحرين على الخليج العربي،ومن ثَمَّ إلى صور، والثانية تبدأ من حضرموت أيضاً وتسير محاذية للبحر الأحمر متجنبةً صحراء نَجْد وهجيرها، ومبتعدةً عن هضاب الشاطئ ووعورتها، وعلى هذا الطريق الأخيرة تقع مكَّةُ في المنتصف تقريباً بين اليمن وغَزَّة(١).

وكانت مكةُ في الجاهلية مدينةً تجاريةً عظيمةً، وكان فيها البيتُ الحرام الذي يُقَدِّسُه جميعُ العرب، فكانوا يحُجّون إليه، ويعظمون أصنامَهم وأوثانَهم فيه، وكانت قريشٌ سَدَنَةَ هذا البيت، يقومون بالعناية به والمحافظة عليه، فأكسبهم ذلك احتراماً عظيماً ومكاناً كريماً، ومن ثَمَّ كانت لهم منزلةٌ سياسيةٌ في نفوس العرب جميعاً مما

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص١٢

كان له أثرٌ كبيرٌ في تحسين مركزهم التجاري الممتاز، فنشطت التجارةُ في مكَّةَ نشاطاً عظيماً، واشتهرت قريش بها،وأَثْرَتْ بسببها إثراءً ملموساً حتى إن صاحب لسان العرب ليقول:

"إنها سميتْ بهذا الاسم لأنهم كانوا أهلَ تجارة، من قولهم: فلانٌ يتقرَّش المالَ،أي: يجمعه[1]، وقد امْتَنَّ الله عليهم بهذا الثراء وما كانوا فيه من أَمْنٍ بقوله تعالى: ﴿ **لإيلاف قريشٍ، إيلافهمْ رحلةَ الشِّتاءِ والصَّيْفِ، فلْيَعْبُدُوا ربَّ هذا البَيْتِ، الذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ** ﴾[2].

فكان لهم رحلةٌ في الشتاء إلى اليمن، ورحلةٌ في الصيف إلى بلاد الشام، وكانت السِّلَعُ التي تُتاجِر بها قريشٌ، هي الأُدْمُ والزبيبُ والصمغُ والطِّيبُ، والتِّبرُ والحريرُ والبرود اليمانية والثياب العدنية، والأسلحة ومصنوعات الحديد، والذَّهبُ من مناجم بني سُلَيْم،ثم السِّلَعُ المستوردة من إفريقية والهند والشام وحوض البحر الأبيض المتوسط، وكذلك المنسوجاتُ النَّفيسَةُ الغاليةُ التي استوردها التّجارُ لبلاد العرب كالديباج والإستبرق والسُّندس، التي كان يتنافس الأغنياء وذوي الثراء والجاه في اقتنائها ولُبْسِها[3].

وكانت التجارة عَصَبَ الحياة الاقتصادية في بلاد العرب قبل الإسلام، وقد اشتغل بها كثيرٌ من السكان من الحضر والبدو،بالإضافة إلى أعمالهم التي فرضتها عليهم بيئتُهم الصحراوية الرعوية، وقد جاء هذا النشاط الاقتصادي التجاري من الموقع الجغرافي للجزيرة العربية،فهي تتحكم في الطريق التجاري العظيم الممتد من الهند والشرق الأقصى إلى الأسواق المُطِلَّة على شرق البحر الأبيض المتوسط.

وقد تَركَّزَ نشاطُ عَرَبِ الحجاز التجاري في أيدي قبيلة قريش صاحبة السيادة على مكَّةَ التي كانت أهمَّ محطةٍ تجاريةٍ على طريق القوافل العظيم.

وارتبط هذا النشاطُ التجاريُّ الذي ساد بلادَ العرب في العصر الجاهلي بتعدد الأسواق التي كان لها أثرٌ عميقٌ في تحديد موارد الرِّزْق، وتنظيم أمور المعيشة عند

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٨/ ٢٢٥ (قرش).

(٢) سورة قريش رقم ١٠٦.

(٣) تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور علي الجندي جـ١ ص٨٦. بتصرف.

العرب جميعاً، الحضرِ منهم والبدوِ، حيث كان يتم فيها تبادلُ السِّلَعِ والبيع والشراء، والأخذ والعطاء، وهذه الأسواقُ كثيرةٌ،منها ما كانت ثابتةً على أيام السنة، ومنها ما كانت موسميةً تُعْقَدُ في مواسمَ معيَّنَةٍ، فإذا انتهى الموسمُ انفَضَّتْ ، كما كانت متفرقةً في أنحاء الجزيرة العربية، حتى تنالَ كلُّ بُقْعَةٍ نصيبَها منها، ولا يُحْرَمُ بعضُ السُّكَان من وجود هذه الأسواق في ديارهم، كما جعلوا لكلٍّ منها وقتاً خاصّاً، بحيث لا يتعارض بعضُها مع بعضٍ،وحتى يستطيع كلُّ من شاء أن يحضرَ جميع هذه الأسواق دون أن تفوته واحدةٌ منها، وقد أفاض الألوسيُّ بذكر هذه الأسواق ومواقيتها[1]. ومما ذكره من هذه الأسواق :

دُومَةُ الجَنْدَل : وكانوا ينزلونها أولّ يومٍ من ربيع الأول، وكانت المبايعة تتم فيها ببيع الحصاة[2]، وهو من بيوع الجاهلية التي أبطلَها الإسلامُ،وكان يرعَى الناسَ ويقومُ بأمرهم أُكَيْدِر بن عبد الملك صاحب دُوْمَة الجندل، وتستمر سوقهم إلى نصف الشهرِ، وقد يغلب على السّوق بنو كلب فيقوم بأمرهم بعض رؤسائهم، وتستمر سوقهم عند ذلك إلى آخر الشهر.

وسوق هَجَر: بالبحرين، وكانوا ينتقلون إليها في شهر ربيع الآخر، ويتولى أمرهم المنذر بن سَاوَى أحد بني عبد الله بن دارم.

وسوق عُمان :وكانوا يرتحلون من سوق هَجر إليها، فتقوم سوقهم بها، وتستمر إلى أواخر جُمَادى الأولى.

وسوق ذي المَجاز : وكانت لهُذَيْل، وهي على بعد فرسخ من عرفة.

---

(١) بلوغ الأرب للألوسي جـ١ ص٢٦٤ وما بعدها.

(٢) بيع الحصاة: هو من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلامُ، وفُسِّرَ بأنْ يقولَ أحدُ المتبايعين للآخر: ارْمِ هذه الحصاةَ فعلي أي ثوب وقَعَتْ فهو لك بدرهم، وفُسِّرَ بأن يبيعَه من أرضه قدر ما انتهت إليه رمية الحصاة، وفُسِّر بأن يقبض على كَفٍّ من حصى ويقول: لي بعدد ما خرج في القبضة من الشيء المبيع، أو يبيعه سلعة ويقبض على كفٍّ من الحصى ويقول: لي بكلِّ حصاة درهم، . . . وفُسِّر بأنْ يعترضَ القطيع من الغنم، فيأخذ حصاة ويقول: أيّ شاة أصابَتْها فهي لَكَ بكذا، وهناك تفسيرات أخرى وهي صُوَرٌ كلّها فاسدة لما تتضمن من أكلِ المال بالباطل، ومن الغَرَر والخطر الذي هو شبيه بالقمار، ولذلك أبطلتها الشريعة.
(الألوسي جـ١ ص٢٦٥).

وسوق مجَنَّةَ: وهو موضع قرب مكة، كانت تقوم به قرب أيام الحجّ، ويحضرها كثيرٌ من قبائل العرب.

وسوق عُكَاظ: وكانت أعظم مواسمهم وأسواقهم،وهو وادٍ بين نخلةَ والطائف وهو أقربُ إلى الطائف، وكانت تقوم أيامَ موسم الحج، وتحضرها كلُّ القبائل بشعرائها حيث يتفاخرون ويتحاجُّون ويتناشدون ما ينسال على ألسنتهم من أشعار.

ومن أسواقهم أيضاً سوق المُشَقَّر، وسوق صُحار، وسوق الشَّحْر، وسوق صنعاء وسوق حُباشة، إلى غير ذلك من الأسواق التي كانت تقيمها العربُ وتحرِصُ عليها، لأجل البيع والشراء وبسبب المفاخرة بالشِّعر والأدب، وبعبارة أخرى كانت الأسواقُ معرضاً عامّاً لحياة العرب في جزيرتهم، بكلِّ أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والأدبية كذلك، وكان العربُ في الجاهلية يستعملون النقود في معاملاتهم،يقول الدكتور جواد علي: "وقد استعملَ أهل العربية الجنوبية النقودَ في معاملاتهم، استعملوا نقوداً سُكَّت من الذهب، ونقوداً سُكَّت من الفضة، وأخرى سُكَّت من النحاس ومن معادن أخرى، وقد عُثِر على نماذج من كلِّ نوع من هذه الأنواع، كما استعملوا نقوداً أجنبية أيضاً وصلت إليهم بتعاملهم مع الأسواق الأجنبية، وقد عُثِر على بعضٍ منها في مواضعَ من جزيرة العرب أكثرها يوناني أو روماني"(١).

"أما أهل الحجاز(٢) فقد تعاملوا بالنقود الرُّومية والساسانية، تعاملوا بالدراهم وتعاملوا بالدنانير(٣)، ولعلَّهم كانوا يتعاملون بنقودِ أهلِ اليمن كذلك وبنقود أهل الحبشة، فقد كان أهل مكة تجاراً، يتاجرون مع اليمن،ويتاجرون مع العراق وبلاد

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي - المجمع العلمي العراقي جـ٨ ص٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ص٢٠٦.

(٣) الدِّرْهم: قيل إنه فارسيٌّ معرب، وهو نَقْدٌ من الفضة، وهو معروفٌ في الفارسية والرومية، والظاهر أن العربَ أخذوا بالتسمية الفارسية، على أن ذلك لا يعني أنهم لم يكونوا يستعملون دراهم الروم، وقد أطلقوا الدراهم على النقود عموماً في بعض الأحيان، من باب إطلاق الجزء على الكلِّ، والدينار من النقود اليونانية اللاتينية وهو مضروب من الذهب. وقد بقي العرب يتعاملون بالدنانير الرومية إلى أيام عبد الملك، حيث أمر بضرب الدنانير فضُرِبَتْ بدمشق.
(المرجع السابق جـ٨ ص٢٠٧).

الشام،وتجارتهم هذه تجعلهم يستعملون مختلف النقود، خاصَّة أنهم كانوا في مكان فقير لا يساعد على ضرب النقد فيه... وقد ذكرَ أهلُ الأخبار أن أهلَ المدينة كانوا يتعاملون بالدراهم عند مَقْدَمِ الرسولﷺ، ويتعاملون بالعدد فأرشدهم إلى الوزن كما يفعلُ أهلُ مكَّةَ، ودرهمُ أهلِ مكةَ ستة دوانيق، وعُدِّلت بعدَ الإسلام فكانت تعرف بالدراهم المُعدَّلَة وهي بوزن سبعة مثاقيلَ لكلِّ عشرة دراهم".

وترتب على هذه الحركة المالية والتجارية عند العرب في الجاهلية خاصَّة إذا لاحظنا أن الأغنياء كانوا قلَّةً، وأنَّ الغالبية كانوا فقراء، ترتب على ذلك أن شاع السَّلْبُ والنَّهْبُ وقطعُ الطُّرُقِ، خصوصاً في متاهات هذه الصحراء الواسعة، وأمامَ القوافلِ التجارية التي كانوا يَغيرون عليها. ومن ثَمَّ وُجِدَت جماعةُ الصعاليك، وانتشرَ قُطّاعُ الطُّرُقِ، وكثرتِ الغاراتُ، وكانتِ القوَّةُ هي صاحبةُ السيادة والسلطان.

وذكر الدكتور يوسف خليف في تعليل انتشار حركات الصعاليك في منطقة السَّراة المحيطة بمكةَ، وفي قبيلة هُذَيْل، التي اشتهرت بكثرة صعاليكها وذؤبانها أنَّ للمسألة جانباً اقتصادياً، وقالَ: "إن من أسبابِ انتشارِ الصعاليك في هذه المنطقة وقوعَها على الطريق التجاري الذي يَصِلُ بين اليمن والشام، مما جعلها ممرّاً للقوافلِ التجارية، هذا إلى قُرْبِها من مكةَ حيث تقام ثلاث أسواق مشهورة: عُكاظ ومَجَنَّة وذو المَجاز، جعلَ منها ميداناً نَشِطاً لحركاتِ التجار في غُدُوِّهم ورَوَاحهم، مما أتاح للمتمردين من صعاليك هذه المنطقةِ الفرصةَ المواتيةَ للغارة والغزْوِ للسَّلْبِ والنَّهْبِ، ولهذا السبب اضطر التجارُ في مناطق الأسواق إلى أن يَتَخَفَّروا بالقبائل القوية التي تنزلها"(١) ولذلك كان يصحبُ القوافَل التجارية أدلاَّءُ يحمونهم من الضلال في مجاهلِ الصحراء، ومِنْ أشهرِهم فُرات بن حيان(٢)، كما كان يصحبُهم خفراء يحمون قوافلَهم من ذؤبان البادية أو صعاليكها، الذين تَعوَّدُوا السلبَ والنهبَ والإغارةَ، وقد يبلغون ثلاثمائة عدّاً، ومن أهم القبائل التي كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هُذَيْل وفَهْم(٣).

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د. يوسف خليف ص١٣٣.

(٢) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٧٦.

(٣) المرجع السابق ص٧٦.

وكانت حياةُ جمهور العرب تقوم على الرعي، فاعتمدت حياتُهم عليه، حيث يتنقلون بآبالهم وأنعامهم وأغنامهم إلى مواطن الكلأ والماء والمرعى، يقول صاحب اللسان: إن أهل البادية "لا يزالون يشربون الماءَ العدَّ حتى يقع ربيع بالأرض فتتوزَّعُهم النُّجَعُ، وتتبعوا مساقطَ الغيث، يَرْعَوْنَ الكلأَ والعُشْبَ إذا أعشبت البلادُ، ويشربون ماء السماء، فلا يزالون في النُّجَعِ إلى إن يهيجَ العشبُ، وتَنِشَّ الغُدرانُ فيَرْجِعون إلى مَحاضِرهم على أعداد المياة"(١).

ولذلك كانوا يحبّون المطرَ ويقدّسونه،ويفرحون بنزوله ويسمونه الغيث،لأنَّه يغيث الأرضَ ويكسبها الخِصْبَ والنماء، ويغيثُ أهلَها فيسقيهم ويُحْيي لهم الزرعَ والضرعَ، وحُقَّ لهم ذلك فإن المطرَ روحُهم وعصبُ حياتهم وأساسُ وجودهم، ولأجله يتنقلون وراء الكلأ والماء، إذ إنه لا تستقيم لهم حياةٌ بدون الأمطار التي عليها جلُّ حياتهم.

والمشكلة الأساسية في حياة هؤلاء القوم هي عدمُ توفر المياه على مدار أيام السَّنَة، وقد مَرَّ بنا أنَّ الجزيرةَ العربيةَ بيئةٌ صحراويةٌ جافةٌ في جملتها،وأنَّ أمطارَها قليلةٌ بوجه عامٍّ، إذ لا تدوم آثارُ الأمطارِ إلا شهوراً معدودةً ثُمَّ يحلُّ الجفافُ،وتتحول الصحاري إلى قطعٍ من الجحيم، ولذلك لا عجبَ أن يكونَ المطرُ حديثَ مجالسهم في الليلِ والنهار، يتحدثون عن مواسمه، ويسألون عن أوقات نزوله، ويستفسرون عن الأمكنة التي أصابَها. وإذا انحبس عنهم المطرُ، نَضَبت الآبارُ،وجفَّت الوديانُ وأمحلَت المراعي، وإذنَ ذلك بفنائهم وهلاك أنعامهم.

ومما زادَ في بلائهم أنَّ الجفافَ يقترن غالباً بريحِ السَّمومِ التي تَشْوي الوجوهَ شَيّاً.

ولعل مما يُصَوِّرُ أهميةَ المطرِ عندهم ما فعلَهُ الشعراءُ حين وقفوا كثيراً أمامَ المطرِ ومناظرِه التي خَلَبَتْ أفئدتَهم ، واستهوتْ نفوسَهم، فصوَّروا البرقَ وَضَوْءَه ، والرعدَ وجَلْجَلَتَه، والسحابَ ودُنُوَّه، وهطولَه وسيولَه ونزولَه، ثم آثارَه الواسعة في إحياء الأرض بعدَ موتها. وبلغَ كذلك من شدَّة محبتهم للأمطار أنهم كانوا يَدْعُون أن تَنْهَمِرَ الأمطارُ على قبور موتاهم وأحبّائهم ، فهي كنايةٌ عن الرَّحْمَةِ وعمومِ الخيرِ.

---

(١) لسان العرب مادة (نجع).

والشعرُ الجاهلي حافلٌ بذكرِ المطرِ والسحاب بحيث لا يُحْصي ذلك عَدٌّ، وهذا المُتَنَخِّلُ الهُذَلي ـ على سبيل المثال ـ يصفُ البرقَ والرعدَ والمطرَ والسحابَ، ويصف سيلاً جارفاً قَلَعَ الأشجارَ، فيصور ذلك بقوله:

هَلْ هَاجَكَ اللَّيْلُ كَلِيْلٌ عَلَى ... أَسْمَاءَ مِن ذي صُبُرٍ مُخْيِلِ

أَنْشَأَ في العَيْقَةِ يَرْمي لَهُ ... جُوْفُ رَبابٍ وَرِهٍ مُثْقَلِ

فَالتَطَّ بالبُرْقَةِ شُؤْبُوبُهُ ... والرَّعْدُ حتى بُرْقَةِ الأَجْوَلِ

أَسْدَفُ مُنْشَقٌّ عُراهُ فَذُو الأَ ... دْمَاثِ مَا كَانَ كَذي المَوْئِلِ

حَارَ وَعَقَّتْ مُزْنَهُ الريحُ وانْ ... قَارَ به العَرْضُ ولم يُشْمَلِ

مُسْتَدْبِراً يَزْعَبُ قُدَّامَهُ ... يرمي بِعُمٍّ السَّمُرِ الأطْوَلِ (١)

وكانوا في الجاهلية إذا حُبِسَتْ عنهم الأمطارُ، واشتدَّ عليهم الجَدْبُ، يقومون بالاستسقاء، وقد صوَّر الجاحظُ طريقَتهم التي كانوا يستسقون بها،وهي توضِّح ما شاعَ بينهم من الأساطير حيث يقول: كانوا إذا تتابعت عليهم الأزماتُ، وركدَ عليهم البلاءُ، واشتدّ الجَدْبُ، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قَدَرُوا عليه من البقر ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها،السَّلَعَ والعُشَر(٢) ثم صعدوا بها في جبل وَعْرٍ، وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يرون أنَّ ذلك من أسباب السُّقْيا(٣).

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٥٤ كَلِيلٌ: بَرْقٌ ضعيف، على أسماء، أي: من نَحْوِ دارِ أسماء، مُخْيِل، أي: مُخيل للمطر، من ذي صُبُرٍ، أي: من سحاب ذي صُبُر وهو جمع صَبير، وهو الغيم الأبيض، العَيْقَة: ساحة من ساحات البر والبحر، والجوف: العظام الكثيرة الأخْذ، والوَرِهُ: المتساقط، والرَّباب: السحاب، التَطَّ: سُتر، وشُؤْبُوبه: مَطْرَةٌ ودفعَةٌ شديدةٌ، وبُرْقَة الأجول: موضعٌ، والأَسْدَف: الأسود، ومُنْشَقّ عُراهُ، أي: من كثرة الماء، وعُراه: نواحيه، المَوْئل: الملجأ من هذا المطر، والأدماث: جمع دَمْث وهو المكانُ السَّهل الذي ليس بمرتفع، حارَ: تحيَّر وتردَّد، وعَقَّت: شقت الريحُ سحابَه، وانقارَ: قُطِعَ، ويَزْعَبُ: يمضي ويتدافع، وقُدّامه: أمامَه، والعُمّ: مثل العميم، الطِّوال، والسَّمُرُ: شجر طوال وله شوك صغار، يعني أن السيل قلع الشجر ومضى به قدماً.

(٢) السَلَعَ بالتحريك، والعُشَر بضم ففتح: ضربان من الشجر، كان العرب يأخذون حطبهما للغرض الذي ذكره الجاحظ.

(٣) الحيوان للجاحظ ٤: ٤٦٦.

وكانت مصادر الثروات عندهم تعتمد على الحيوان من الآبال والأغنام والخيول وما إلى ذلك، فكانوا يتخذون من الإبل والغنم والمَعَزِ مواردَ رزقهم، ووسائلَ حياتهم ومعيشتهم، يأكلون لحومَها، ويشربون ألبانَها، ويتخذ البدوُ من أصوافها وأوبارها وأشعارِها مساكنَ لهم، تقيهمُ الحرَّ والبردَ، وكثيراً ما كانوا يعتمدون عليها في أثاث بيوتهم وأمتعتهم،وكانت ثروة البدوي تقدَّر بعددِ ما يملكُ من الإبلِ والأنْعامِ، لأنها مواردُ رزقه، ومصادرُ ثروتِه، فهي تَدِرُّ له الحليبَ وتعطيه اللحمَ، وتحمله إلى حيث يشاء في أسفاره وتنقلاته.

فكان الجملُ يتحمل مشاقَّ الصحراء، ولا يرهقُه العطشُ أو الجوعُ أو ما يحملُه من أثقال، فهو رفيقُهم المفضلُ الذي يوافقهم فعلاً، ولذلك طالما أشادوا به في أشعارهم، هذا إلى أنه كان عوناً لهم في الحرب،كما كان عوناً لهم في السِّلْم، فلا عجبَ أن يحبَّه العربيُّ حبّاً شديداً، ويفضِّلَه على سائر الحيوان.

ويروي ابنُ قتيبة أنه "أُدْخِل أعرابي على كسرى ليتعجبَ من جفائه وجَهْله، فقال له: أيّ شيء أطيبُ لحماً؟ قال: الجَمَلُ، قال :فأي شيء أبعدُ صوتاً؟ قال: الجملُ، قال: فأيّ شيء أنهضُ بالحِمْلِ الثقيل؟ قال الجملُ، قال كسرى : كيف يكون لحمُ الجملِ أطيبَ من البطِّ والدجاج والفراخ والدُّرَّاج[1] والحدَاء؟ قال: يطبخ لحم الجمل بماءٍ وملحٍ، ويطبخُ ما ذكرتَ بماء وملحٍ حتى يُعْرَفَ فضلُ ما بينَ الطعمين، قال: كيف يكون الجَملُ أبعدَ صوتاً ونحن نسمعُ الصوتَ من الكُرْكيّ[2] من كذا وكذا ميلاً؟ قال الأعرابي: ضع الكُرْكيَّ في مكان الجملِ، وضعِ الجملَ في مكان الكُرْكيّ حتى تعرف أيَّهما أبعدَ صوتاً. قال كسرى: كيف تزعم أن الجملَ أحملُ للحملِ الثقيلِ والفيلُ يحملُ كذا وكذا رطلاً؟ قال : ليُبْرَك الفيلُ ويُبْرَك الجملُ، وليُحْمَلْ على الفيلِ حِمْلَ الجملِ فإن نهضَ به فهو أحملُ للأثقال[3].

وكانت الخيلُ عوناً لهم في السِّلْم وفي الحربِ كذلك، يصيدون بها الوحشَ من الحيوان للغذاء، ثم يغزون بها ويقاتلون الأعداء، ولذلك لا عجبَ أن تُقَدَّر ثروةُ

---

(١) الدُّرَّاج: طائر يطلق على الذكر والأنثى جميل المنظر ملون الريش.

(٢) الكُرْكيّ: طائر من الإوَزّ أبتر الذنب رمادي اللون في خده لمعات سود قليل اللحم صلب العظم يأوى إلى الماء أحياناً.

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣/١٩٩.

الواحد منهم بقدر ما يملك من هذه الحيوانات، لا سيما الإبل والخيل التي كانت لهما قيمةٌ عظمى في نظرهم، فكان العربيُّ يميلُ إلى الإكثار منهما ومن غيرهما من المواشي، حيث يتعهدها بالتربية والرعاية، ومن ثم يتكوَّنُ مركزُه الاقتصادي بين قومه وبني جِلْدَتِه.

وكان الغزو والإغارة والسَّلْب والنَّهْب مصدراً أساسياً من مصادر الحياة عند بعض العرب، وخاصّةً جماعةَ الصعاليك، الذين جعلوا أرزاقَهم في رماحهم، ومعاشَهم فيما بأيدي غيرهم،هذا إلى جانب أن بعض القبائل التي استشعرت المَنَعَةَ في نفسها، والعِزَّةَ بأبنائها، اندفعت وراء القبائل الضعيفة تُغيرُ عليها،وتَسْلُبُ أموالَها وتسبي نساءها،وتأسرُ رجالَها،وتقوم القبيلةُ الأخرى بأخذ ثأرها،وردِّ شرفَها، وقد تستمرُّ الحربُ شهوراً وسنوات، وتكاد تأتي على الزرع والضرع، وتعطِّلُ مسيرةَ قافلة الحياة، فكانت هذه الحياة الحربية من بعض وجُوهها مصدراً من مصادر الرِّزْق حيث كانوا يتخذون الغزو وسيلةً من وسائل عيشهم، وهو عيشٌ مَشُوبٌ بالضَّنك والشَّظَف، ولذلك كانوا في صراع عنيف يخوضونه ضد مخاطر الصحراء، ومَن يَتَرصّدُهم من الأعداء.

وكانت هذه حياةُ الصعاليك، فهم يقطعون مفازةً في النهار، فإذا جَنَّهُمُ الليلُ وجدتَهم في مفازةٍ أخرى، وقد ركبوا ظهور المهالك والصعاب، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التي تعودت العدْوَ السريعَ، وهم دائماً مُفزَّعون حتى في النوم، فإذا ناموا لم ينم قلبُهم ، لأنهم ـ دائماً ـ مُروَّعون من عَدُوٍّ راصدٍ أو وَحْشٍ شاردٍ أو إنسانٍ حاقدٍ، بل إن النومَ لا يكادُ يَلُمُّ بعيونهم إلا غراراً، لأنَّهُم ـ أبداً ـ يواجهون الصعوبات والمخاطرَ، وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون، بل إنهم ليُؤْثرون الوحشةَ ويستحبونها إذ يرون فيها الأُنْس، فأُنْسُهم في التفرُّد بالفلوات والقفار التي تمرَّسُوا بها، وعرفوا مسالكها ودروبها معرفةً تجعلهم لا يضلّون قصدَهم كما لا تضلُّ الشمسُ قصدَها، بل يهتدون دائماً إليه(١).

وكان صيدُ الحيوان الشَغْلَ الشَّاغلَ لكثيرين منهم، وكانوا يدربون الكلابَ عليه حتى تصبحَ من الجوانِ الفاتكة، وفي أشعارهم قِطَعٌ كثيرةٌ تَصِفُ المعاركَ التي تنشَبُ بينها وبين الأُتُن وحمارها أو البقر وثورها، على نحو ما فعل أبو ذؤيب في عينيته المشهورة، أو غيره من الشعراء الجاهليين الذين وصفوا الصيدَ وجالوا في هذا الميدان.

---

(١) انظر العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٧٩.

فكان حيوان الصحراء من حُمُرٍ وأُتُنٍ وبقرٍ وثيران وغيرها،من أنواع الحيوان مصدراً مِن مصادر رزقِهم،فاعتمدَ عليه بعضُهم، حيث كانوا يصطادون الوحشَ فيقتلونه ويشوون لحمه،ويتخذون منه غذاء شهيّاً، غير أن هذه الجماعة التي كانت تعتمد على الصيد كانت فقيرة فقراً مُدْقعاً، فلم يكن صيدُ الوحش هَمَّ شجعانِهم وفرسانِهم، وإنما كان هَمَّ فقرائهم ومُعْوزيهم، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من (غايات) غزوهم ونَهْبِهِم اللذيْن يدلان على بطولتهم واستبسالهم[١].

أما الزراعة فقد عرفت في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثلِ يثرب وخَيْبر وفي الطائف ووادي القُرى[٢].ويلاحظ أن العربيَّ نَفَرَ من الزراعةِ والصناعةِ، وكأنَّه رأى فيها تقييداً لحريته،وحدّاً من حركته، ولذلك لم تزدهر الزراعة ولا الصناعة في بلاد العرب بصفة عامَّة، وهم لا يزالون يحتقرون الصناعةَ، ولا يزالون يعدّونها من المهنِ الخسيسة التي تَحُطُّ مِن قَدْرِ صاحبِها، وإذا أرادوا تحقيرَ إنسانٍ وسَبَّه بكلمةٍ تكون مجمعَ السِّبابِ قالوا له: يا ابن الصانع![٣].

وهذا عَمرو بن كلثومٍ يُعَيِّر النعمانَ بنَ المنذرِ بأن أُمَّه مِن أسرةٍ كانت تشتغل بالصناعة فيقول:

لَحَا اللهُ أَدْنَانَا إلى اللَّوْمِ زُلْفَةً ... وَأَلأَمَنَا خالاً وأَعْجَزَنَا أَبا

وأجْدَرَنا أنْ يَنْفُخَ الكيرَ خَالُهُ ... يَصُوغُ القُروطَ والشُّنُوفَ بيَثْرِبَا[٤]

وقد أنفَ البدويُّ من الاشتغال بالزراعة لأنه لم يفكر في الاشتغال بموردٍ ثابت يربطه بمكانٍ لا يبرحه طولَ حياته، لأنه طُبِعَ على حُبِّ التنقل والترحال هنا وهناك في الكون الفسيح الأرجاء، وتركوا ذلَكَ لغيرهم ممن كانوا يعتبرونَهم أقلَّ منهم، ولم يقمْ بها غالباً إلا الفقراء من أهل الحضرِ والعبيدِ والأُجَرَاء واليهود، وكان مبدأ العربي "الذُلُّ بالحراث،والمهانةُ بالبقر، والعزُّ بالإبل، والشجاعةُ بالخيل"[٥].

---

(١) المرجع السابق ص٨٠.

(٢) المرجع نفسه ص٧٦.

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين للأستاذ حافظ وهبة ص١٣٧ ط٣ النهضة المصرية.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ١ / ٨٢.

(٥) تاريخ الأدب العربي للدكتور بلا شير، وترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني ص٣٣ دمشق سنة ١٩٥٦.

obeikandi.com

ولهذا تمسَّكُوا بالصحراءِ وعاشوا بين أفنائها الواسعة، تحت سقوف خيامهم وبين حيواناتهم، يتنفسون من هوائها العذب، ونسيمها العليل ، الذي يحملُ بين هبوبه وحركاته السحرية الكاملة ،والسيادة المطلقة، فيُغَذِّي أرواحَهُم المُتَعَشِّقَة للانطلاق، والمطبوعة على الأنفة من الحدود والقيود.

وهُذَيْلٌ كانت من القبائل العربية في الجاهلية،وكانت معيشةُ العرب آنذاك مُتَقاربةً إلى حَدٍّ كبيرٍ، فلم تَكَدْ تتميز عن غيرها في نوعِ الحياة بالشيء الكثيرِ اللَّهُمَّ إلا ما شاعَ عنها من كَثْرَة صعاليكها وذؤبانها، ثم شهرتها بتربية النَّحْلِ واشتيار العَسَل ـ كما سيأتي ـ فحياةُ العربِ في الجاهلية مُتَقاربةٌ،وموارِدُ أرزاقِهم متشابهةٌ.

يقول الدكتور شوقي ضيف: " كانت معيشتُهم بين صيدٍ للوحشِ وصيدٍ للإنسان، ورعي للأنْعامِ والأغنام،فتلك مواردُ رِزْقِهم، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق، فقد كان في كلِّ قبيلةٍ السادةُ الذين يملكون مئات الإبل،والفقراء الذين لا يملكون شيئاً،وتحوَّل كثيرٌ من هؤلاء الفقراء إلى قُطَّاعٍ للطُّرُق، يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شراً والشَّنْفَرَى وأضرابهما،وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائلُ برُمَّتها أحياناً حين تَكُفُّ السماءُ عنهم غيثَها، وتُجْدِبُ ديارُهم وتُمْحِل، فلا يكون أمامَهم سوى الغزوِ وشنِّ الغارات، ولعلَّ ذلك هو الذي دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء، وقد أشادوا طويلاً بهذه الفضيلة... وهي إشادَةٌ طبيعية[1] في هذه الصحراء المُقْفِرة المُهْلِكة، التي يَحُفُّ بها المَحْلُ والجَدْبُ من كلِّ جانب"[2].

ولم يُعْرَفْ عن هُذَيْل شهرةٌ في التجارة أو الزراعة أو الصناعة، والسببُ في ذلك أنها قبيلةٌ باديةٌ، عاشت حياةَ البادية، بما فيها من رَعْيٍ للآبالِ والأغنام،وما فيها من الغزوِ والغارات، وما فيها من الصيد لأنواعِ الحيوان ونحو ذلك، فهم كغالبيةِ العربِ من البدوِ الذين عاشوا على الرعي... الذي هو أهمُّ مصدرٍ من مصادرِ ثرواتِهم ثم الصيدُ والسَّلبُ والنّهبُ والإغارةُ وما إلى ذلك.

---

(١) كذا – وهو خطأ صوابه: طبعية.

(٢) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص٨١.

ويقول الدكتور أحمد كمال زكي: " إنَّ تجارةَ الحجاز لم تكن في يد هُذَيْل وإنما كانت في يد أهلِ يَثْربَ وخيبرَ ومكةَ... والواقع أن هُذَيْلاً لم تستطعْ أن تَقفَ بتجارة أمام هاتين القوتين الهائلتين: قوة اليهود وقوة قريش،ومن هنا نستبعدُ أن يكونَ لها حظُّ الاشتغالِ بالتجارة، اللَّهُمَّ إلا إذا كانت تقنع بتبادل محدودٍ تقوم به في الأسواق التي تقعُ على الطرقِ التجارية، أو في الأسواقِ الكبرى كعُكاظ وَمَجَنَّةَ وذي المَجاز والأخيرة كانت لها.

فإذا كُنّا نقَرِّرُ أنَّ بعضَ عناصرٍ من هُذَيْل كانت حياتها الاقتصادية تتصلُ بحركة التجارة،وتشتركُ فيها حسبَ طاقتها المادية، وتأخذُ في ذلك سبيلاً مشروعةً، فإنا نَجدُ عناصرَ أخرى منها تتنكب هذا السبيل، وتجعلُ صلتها بهذه الحركة صلةَ عداءٍ ،لأنها لم تكن تجدُ ما تبادل به سوى الغدر... ثم تعود ظافرةً.

كانت هُذَيْلُ إذن متأخرةً دائماً عن القافلة، وكان هؤلاء الذين ينشطون للتجارة يَكوِّنون طبقةً خاملةً في جملتها، تعيشُ مع غيرها في شعاب مكة وأطرافها البعيدة، وتسكن بيوتاً حقيرةً، وتعاني جوعاً مُلحّاً، وكذا يمكن أن نقول: إن اختلال التوازن الاقتصادي القائم على التجارة أضرَّ بهذه الطبقة من هُذَيْل، وهيأ لكثيرين منها حياةً شاذَّةً[1].

وقامت حياة هُذَيْل كجمهور العرب الذين قامت حياتُهم على الرعي، واعتمدت حياتُهم وحياة آبالهم وأنعامهم على الكلأ والماء، فكانوا يتتبعون مساقط المطرِ ويتنقلون لمواطن العشب، وذكر ابن خلدون أن هُذَيْلاً وغيرها من القبائل كانوا أهل شَظَفٍ ومواطنَ غير ذات زرعٍ ولا ضرعٍ[2]، ولذلك كانوا يتنقلون وراء الكلأ والماء هنا وهناك، وكان تنقلهم وراء الغيث والكلأ ينتجُ عنه الكثيرُ من المشاكلِ والمخاطر، فيُرْوَى أنَّ رجلين من بني لِحْيان من هُذَيْل ، هما جُنَيْدبٌ وأبو المُوَرِّق، كانا يسكنان سَرِفاً والحرمَ لا يخرجان منه، وحدث أنَّ أبا المُوَرِّق أحسَّ من بني ليث بن بكرٍ تَنَكُّراً أو غدراً فقالَ لأخيه جُنَيْدب، اخرج بنا من وسط بني بكرٍ، فإني والله لقد رأيتُ شأنَ قومٍ يريدون بنا غدراً، فقال جُنَيْدبٌ : والله ما علينا من بأسٍ، وإنا لفي الحَرَمِ،وما أنا بخارجٍ منه. قال: لكني والله لأُفارِقَنَّه عَجِلاً، ولأذهبَنَ إلى قومي.

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٧٩.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص١٢٩.

فخرجَ أبو المُوَرِّق إلى قومه، وقعدَ جُنَيْدبٌ جاراً لدارٍ من بني ليثٍ، يقال لهم بنو شجْع بن عامر بن ليث وحدَثَ أن غَيْثاً وقعَ بالمُغَمَّسِ وراء الحرمِ بأميالٍ، فقالوا لجُنَيْدبٍ: اخرج معنا إلى هذا الغيثِ، فقال: والله إني لأكرَه أنْ أَخرُجَ من الحَرَمِ وأخشى أن أُغَرَّ، وليس معي أحدٌ من قومي، فقالوا: أمَعَنا تخافُ؟ والله ما عليكَ منّا بأسٌ ما بقي منّا أحدٌ، فخرج معهم حتى دخل المُغَمَّسَ، فأغاروا عليه وقتلوه وأخذوا مالَه،فلما بلغ ذلك أبا المُوَرِّق قال:

ألا يا مَنيَّ لِمْ غَررْتِ جُنَيْدباً   وأَحْلَلْتِه على لئيمٍ مُذَمَّمِ
وَجَنَّبْتِهِ كلباً وكعبَ بنَ عامرٍ   وَحلَّ على بادي المَفاقرِ مُعْدِمِ
لَعَمْرُكَ ما جاوَرْتَ في رَهْطِ معبد بـْ   ـنِ صَخْرٍ ولا جاوَرْتَ رَهْطَ ابن جُعْشُمِ
ولكنْ بني السَّكْرانِ أولادَ جَثْلَةٍ   تعودُ لِما أَلْقَتْ مِن السَّهِ في الفَمِ [١]

فكانوا يتنقلون وراءَ الكلأ والعشبِ،فيرتحلون وينتشرون طلباً للرزقِ حتى إنَّ بعضهم كان يواجه الصعوبات أحياناً في سبيل ذلك، وقد يواجه القتلَ، كما تروي الأخبارُ أن أبا المُوَرِّق وصاحباً له كانا قد انتجعا سَرِفاً، وحدثَ أن أخصبتْ بلادُهما فمضى أبو المورِّق إلى بلده، وأقام الآخرُ بسَرِفٍ، ثم أتاه رجلان من بكرٍ ومن بني شجْع ينزلان المُغَمَّس، فدعياه[٢] أن ينطلقَ معهما إلى منزلهما في المُغَمَّس لأنّهُ مُخْصِبٌ فانطلقَ معهما، فلما قَدما المُغَمَّسَ قتلاه وأخذا مالَهُ، فقال أبو المُوَرِّقِ:

تَرَكْتُ العادَ مَقْليّاً ذَميماً   إلى سَرِفٍ وأَجْدَدْتُ الذَّهابَا
وكنتُ إذا سَلَكْتُ نِجادَ أَرْضٍ   رأيتُ على مَراقِبِها الذِّئابَا
إذا نَزَلَتْ بنو لَيْثٍ عُكاظاً   رأيتَ على رُؤُوسِهِمُ الغُرابَا
غَدرتُم غَدْرَةً فضَحَتْ أَباكُمْ   وثَبَّتَتِ المُغَمَّسَ والظِّرابَا

---

(١) كتاب شرح- أشعار الهذليين ٢ / ٧٧٧ يا مَنيَّ: أرادَ يا مَنيَّةُ فرخَّم، لئيمٌ: يعني الرجُلَ الذي كان في جوارِه، كلبٌ وكعبُ بن عامر: من كنانة، المَفاقر: جمع فَقْر على غير قياس، ومُعْدَم: فقير، معبدُ بنُ صخر: من بني ضَمْرَة من كِنانة، ابن جُعْشُم: من بني مُدْلجٍ مِن كِنانة كذلك، جثلة: أَمَةٌ، ويقال إن أُمَّه يقال لها جثلة، السَّه: بالهاء الأصلية وهاء التأنيث.

(٢) دعياه: لغة في دعواه.. دَعَيْتُ ودَعَوْتُ.

obeikandl.com

وَلَوْ جَــــاوَرْتُمُـــــوه فـي هُذَيْلٍ   لـرَدَّكُـم وأُمَّـكُـمُ الـعُـنَـابَـا [1]

وكان المرعى عندهم من الأهميةِ بمكانٍ، وكان عليهم أن يتضامنوا لحراسةِ مراعيهم، وأن يتعاونوا على حمايةِ ما يملكون من إبلٍ وماشيةٍ فلا شكَّ أن المرعَى كان مصدراً لأنعامِ القبيلةِ وآبالها، تسرحُ فيه وتمرحُ، وترعى بين أفنائه، ولذلك كان المرعى الخصْب مجالاً للتنافس، ويفتخرُ أصحابُه بملكيته، وقد تطلبُ منهم القبائلُ الأخرى أن يرْعَوا فيه، كما حدَّث الحلوانيُّ من أن بلادَ فَهْمٍ كانت قد أَجْدَبَتْ حتى تَعَجَّفَتْ أموالهم، وخَشُوا على أنفسهم وعلى أبنائهم الهلاكَ، وكانت بلادُ بني صاهلة من هُذَيْل خِصْبَةً، وكانت هُذَيْل وفَهْم يقتلُ بعضُهم بعضاً، وحدثَ أن دخلَ رجبٌ الأصمُّ، وهو من الأشهر الحُرُم، وكان أهلُ الجاهلية لا يُغيرون فيه ولا يغزون وكانوا ينسؤون سائرَ الأشهرِ الحُرُم، فخرجَ من فَهْم ثلاثمائة أو أربعمائة أو زيادةٌ على ذلك من رجالاتهم وأشرافهم، فجاؤوا بني صاهلةَ فقالوا: "يا بني صاهلةَ، حلَّتْ علينا سَنَةٌ خَشِيناها على أموالنا وأنفسنا، وبلادُكم اليومَ خصْبَةٌ فأَرْعُونا في بلادكم وآمِنونا حتى يقع بأرضنا غيثٌ، فإن الأيام عُقَبٌ ولعلكم أنْ تَبْتَغُوا إلينا مثلَ ذلك يوماً من الدهر" فقال رجل من بني صاهلة: استعينوا بالسَّنَة فاقتُلوهم ولا تُرْعُوهم فقام رجلان سيدان شريفان من فَخذَين شَتَّى من هُذَيْل، وهما خُوَيْلدُ بن المُحَرِّث ابن الأَشْيَم، وإياس بن الحارث بن المُقْعَد، فرحَّبا بهم، وهو ما تقتضيه الطبيعةُ العربيةُ والكرمُ العربي، وقالا: "يا معاشرَ فَهْمٍ، قد أجرناكم، فارعوا من أرضنا حيث شئتم" فرجعَتْ فَهْمٌ إلى قومهم، فخرجوا يسيرون لا يُحلُّهم إلا الليلُ، حتى هبطوا حُثُنَ، وطلع أكثرُهم للوَتيرِ، فَحَلُّوا على ظَرٍّ من دُفاقَ وتلك الأودية، فقال شاعرُ فَهْمٍ في ذلك واسمه كانفٌ:

لقد فَسَحَتْ رَبْعاً قُرَيْمٌ وقومُهُمْ   لنا بعدَ ما سَدُّوا الطريقَ وشجَّعوا
يُرِيغُــــهُمُ عن كُلِّ أَمْـــرٍ أرادَهُ   غُـلامٌ كَنَصْلِ السَّـمْـهَـرِيَّةِ أَرْوَعُ

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٧٧٩. عادٌ: بَلَدٌ، النُجادُ: ما غَلُظ من الأرض، مَراقبُها: أعلامٌ تقوم فوقَها الحُرّاسُ، بنو ليث: من كنانة، كأنَّ على رؤوسهم الغراب: من سكونهم لذُلِّهم واستحيائهم من غَدْرهم، المُغَمَّس: موضعٌ بمكة والظَّرِبُ: أصغرُ الجبال، العُناب: البظراء، ويقال إن العُناب اسمُها.

إياسٌ وإنْ تَذْكُـرْ إياسـاً فـإنَّهُ يُواتيكَ في الأمْـرِ الذي هُو أَرْفَعُ
وَنعْمَ الفـتَى يوم التـقَـيْنَا خُـوَيْلدٌ أخو الحربِ في الضَّرَّاء لا يَتضَعْضَعُ
نَمَى بكَ عِرْقٌ في النُّبَيْشاتِ ماجدٌ وعِـرْقُ زُبَيْدٍ فـهْـوَ في المجدِ مُـتْلَعُ (١)

فنرى أن أعداءَهم مِن فَهْم طلبوا منهم أن يَرْعَوا بلادَهم، ومرَّ بنا كيف أنه كان بينهم وبين فَهْم الكثيرُ من الأيامِ والغارات.

وكان للإبلِ أهميةٌ كبرى عند العربِ، فالجملُ أفضلُ حيوانٍ أهليٍّ عندهم، فلا تُقْطَعُ الباديةُ بغيره، وهو لقناعَتِه وقوَّته واحتماله المشاقّ، وصبرِه على العطش أياماً لا يقوم مقامَه حيوانٌ آخرُ في الركوب وَحمْلِ الأثقال(٢)، فلا شكَّ أنه أنفعُ الحيواناتِ لهم،وأنه يستطيع أن يَجوبَ الباديةَ ويتنقَّلَ فيها بسرعةٍ فائقةٍ، ولذلك كانت الإبل تحتلُّ مكانةً ممتازةً عندهم، وكانت مجالاً للطمعِ حتى بين أفراد قبيلة هُذَيْل أنفسهم، فيطمعُ بعضُهم فيما بأيدي بني عمومتهم من الإبل، فيعتدون عليهم طمعاً في مالهم وآبالهم. فيُرْوَى أن رجلاً من هُذَيْلٍ بادَ أهلُه وهلكوا فحازَ مواريثَهم، ثم سارَ بها حتى جاورَ بني مُؤَمَّلٍ وهم حيٌّ من هُذَيْل، وكان الرجلُ في عَدَدٍ وثروةٍ، فجعلوا يظلمُونَه ويَبْغُون عليه في ماله، وأخذَ يناشدُهم اللّهَ عزَّ وجلَّ وهم لا يَرْعَوُون،وكان فيهم رجلٌ يقالُ له رِياحٌ، لما رأى ما يَصْنَعُ قَوْمُه بجارِهم قال لهم: " يا قوم إنَّ هذا لا يَحلُّ لكم في دينكم، ولا يَجْمُلُ بكم في أعراضكم، فانْزِعُوا عن ظُلم جاركم وابن عَمّكم" فأَبَوْا ذلكَ ورفضوا، فأمْهَلهم الرجل حتى دخل الشهرُ الحرامُ، ونَزَلَ الناس عُكاظَ، فقام قائماً فَبهلَهُمْ ودعا عليهم فقال:

يـاربِّ أَشْـقـانِي بَنُو مُـؤَمَّلِ فـأرْمِ على قَـفَّـانِهِمْ بِمَنْكِلِ
بِصَخْرَةٍ أو عَرْضِ جَيْشٍ جَحْفَلِ إلاّ رِياحـاً إنه لمْ يَفْـعَلِ (٣)

(١) المرجع السابق ٢ /٨٥٧ فَسَحَتْ: أَوْسَعَت، وشَجَّعوا: كَرَّهوا وكَلَّحوا، يُرِيغُهُم: يطلب ذاك، يقال إنه ليُرِيغ حاجةً إذا كان في طلبها، وزُبَيْد: رهْطُ عبد الله بن مسعود رحمه الله، مُتْلَع: مُشَرَّف.

(٢) حضارة العرب – جوستاف لوبون ص٤٤.

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٩٠٤.

فاستجابَ اللهُ دعاءه، وضربَ الدهرُ ضَرْبَتَه، وحدَثَ أن أقبلُوا حتى نَزلوا شِعْباً من شِعاب نَجْدٍ فضربوا به الأخبيةَ، فبينما هم مطمئنون، إذ قَضَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهم صخرةً من سواءِ الجبلِ في الليلِ،فجعلت تَقُضُّ الحجارَة،وجعلت الحجارةُ يَقُضُّ بعضُها بعضاً حتى مرَّتْ بأبياتهم فأَرْمَدَتْهُم، إلا خِباءَ رِياحٍ لم يَدْنُ منه أي حجر!.

ولعلَّ مما يبينُ مكانةَ الإبلِ عندهم ما رُويَ من أنَّ أبا خِراش كان لا يثورُ ولا يغضبُ عندما يعلم أن أخاه عروةَ يغزوه ليلاً فيأخذُ شاةً من شائه، ولكنه يثورُ ويغضبُ حين يعلم أنه أخذَ إحدى نُوقِه.

يقول صاحب الأغاني: " فبينا أبو خِراشٍ ذات يومٍ في بيته إذ جاءَهُ عَبْدٌ لَه فقال: إن أخاك عروةَ جاءني، وأخذَ شاةً من غنمِكَ فذبحها، ولطَمني لما منعتُه منها، فقال له: دعْه، فلما كان بعدَ أيامٍ عاد فقال له: قد أخذَ أخرى فَذَبَحَها، فقال: دعْهُ فلما أمسى قال له: إن أخاكَ اجتمع مع شَرْبٍ من قومه فلما انتَشَى جاءَ ليأخذَ ناقةً من إبلك لينحَرَها لهم، فعاجلَه،فوثبَ أبو خِراشٍ إليه ، فوجدَه قد أخذَ الناقةَ لينحَرَها فطردَها أبو خِراشٍ ، فوثبَ أخوه عروةَ إليه فلطَمَ وجهَهُ، وأخذَ الناقةَ فعقرَها وانصرفَ أبوخراشٍ"(١).

وهذا أبو جُنْدُب الذي جاورَ بني نُفاثةَ بن عَديٍّ بن الدِّيلِ حيناً من الدهرِ وكانت له إبلٌ كثيرةٌ، ثم أحسَّ أنَّ القومَ يريدون الغدرَ به، لما كان من وطأة بني لِحْيان عليهم، وكان مع أبي جُنْدُب أخوه جَنَّاد، فاتفقَ أبو جُنْدُب مع أخيه على الهرب وقال له: "اسْرَحْ مع نَعَم القومِ، ثم توقف وتأخَّر حتى تمرَّ عليك النَّعَمُ كلُّها وأنتَ في آخرها سارحٌ بإبلكَ، واتركها في المرعى، فإذا غابوا عنك فاجمع إبلك واطردْها نحو أرضنا"(٢). وأخذَ أبو جُنْدُب دَلْوَه، ووردَ مع الرجال،واتَّخَذَ القومُ الحياضَ، واتَّخَذَ أبو جُنْدُب حوضاً فملأه ماءً، وقَعَدَ عنده، فمرَّتْ به إبل ثم إبل، حتى إذا وردَ آخرُ النَّعَم وآخرُ الظَّعُنِ ولم يرَ أخاه، قال: والله لقد حَبَسَ أهلي حابس، ثم طرحَ دَلْوَهُ على الحوض، ثم ولىَّ حتى أدركَ أخاه بحيث وعدَه، وهربا بالإبل(٣).

---

(١) الأغاني جـ٢١ ص٢٤٠.

(٢) الأغاني ٢١ /٢٤٨.

(٣) المرجع السابق جـ٢١ ص٢٤٨، وانظر كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /٣٦٢.

وكانت هُذَيْل تعتبر الإبلَ مَحطَّ نظرها، ومنتهى آمالها، فكانوا يمتلكونها ويحرصون عليها، وينحرونها للضيفان، وخاصَّة إذا أمحلَ الناس وأَجْدَبوا في سِنِي الجفاف، والقحط كما قال أبو ذؤيب:

فإنَّك لو ساءَلْتِ عنَّا فَتُخْبَري ... إذا البُزْلُ راحت لا تَدرُّ عِشارُهَا

لأُنْبِئْتِ أنّا نَجْتَدي الفضلَ إنما ... يُكَلَّفُه من النفوس خِيارُهَا

لنا صِرَمٌ يُنْحَرنَ في كلِّ شَتْوَةٍ ... إذا ما سماءُ الناسِ قَلَّ قَطارُهَا (١)

فأبو ذُؤَيْبٍ يفتخرُ بنحرِ النّاقة العُشَراء، وهي النّاقَة التي أتى على حَمْلِها عَشَرَةُ أشهر، فإذا وضعت بقي هذا الاسم عليها، وهي عند العرب من أعزّ الإبل، وكان ذبحها للضيفان يعتبرُ غايةً في الجودِ والإكرام، هذا إذا علمنا أنَّ لحومَ الإبل كانت من أحسنِ اللحوم عند العربِ فلا يُفضِّلون شيئاً عليها(٢).

ويبدو أنَّ الذئابَ كانت تهدِّدُ أغنامَهم وشاءَهم في البادية، فهذا عمرو ذو الكلب يصفُ في أُرجوزةٍ له ذئباً جائعاً، ويرسم له صورةً دقيقةً فيتحدَّث عن الغنمِ وعن الذئب الذي جاء مسرعاً من عُلاوَةِ الريح... يقول:

يا ليْتَ شِعْرِي عنْكَ والأَمْرُ عَمَمْ

هلْ جاءَ كعبُ عَنْكَ منْ بينِ النَّسَمْ

ما صنعَ اليومَ أُوَيْسٌ في الغَنَمْ

صُبَّ لها في الرِّيحِ مِرِّيحُ أَشَمْ

ثم يصف الذئب واختياره من الغنم لُجْبَةً(٣) وهي التي أتت عليها أربعةُ أشهرٍ من ولادِها فخفَّ لبنُها ... فيقول:

---

(١) ديوان الهذليين ١/٢٦. عشارها: حديثة النتاج منها، نجتدي: نطلب، صِرَم: قطع إبل، الواحدة صِرْمة، وهي ما بين العشر إلى العشرين، قطارها: أمطارها.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي جـ١ ص٣٨٠.

(٣) مثلثة اللام -كاللِّجَبَة بفتح اللام وكسرها، واللِّجِبَة.. بفتح فكسر.

فـاعـتـامَ منهـا لَجْـبَـةً غـيـرَ قَـزَمْ

حـــــاشِكَـةَ الـدِّرَّةِ وَرْهـاءَ الـرَّخَـمْ

فَـجِـئـتُ لا يشـتَـدُّ شَـدِّي ذُو قَـدَمْ

وفي الشِّـمـالِ سَـمْـحَـةٌ مِن النَّشَمْ

ونراه في آخر أرجوزته يُقْسِم على قَتْلِه فيقول: لئن رميت هذا الذئب مِن بعيدٍ أو قريبٍ لأقتلنَّه، فنراه يقول:

قَـد كُنتُ أَقْـسَـمْتُ فَـثَنَّيْتُ القَـسَمْ

لـئِـنْ نـأَيْـتُ أو رَمَـيْـتُ مِـن أَمَـمْ

لأَخْـضِـبَنْ بَعْـضَكَ مِن بعضٍ بِدَمْ[١]

وكانت هُذَيْل تمتلك الخيلَ، ولكن يبدو أن الخيلَ كانت قليلةً عندهم، يقول الأصمعيُّ: " إِنَّهم كانوا أصحابَ جمالٍ وكانوا يُغيرون رَجَّالة لم تكنْ لهم خيلٌ"[٢] وذكر السُّكَّريُّ أنَّ هذيلاً ليسوا بأصحابِ دوابَّ إنما هم رَجَّالة[٣]. فكانوا يمتلكونها لا سيما الأغنياءُ منهم، وقد وصفها شعراؤهم، إلا أنه يبدو أن الخيلَ كانت قليلةً عندهم بالنسبة إلى غيرها من صنوف الحيوان. ولعل سبب ذلك أن الخيلَ على عكس الجملِ الذي يمكن تربيته في كلِّ مكانٍ، فهي لا تنشأ إلا في البقاع الخِصْبَة كسهول العراق وسورية ونَجْدٍ، وفي نَجْدٍ وحدَها أعزُّ الخيول العربية وأرشقُها[٤].

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢/٥٧٥ عمم: عامٌّ، النَّسَم: النّاس، أُوَيس: الذئب ويسمى أوساً كذلك، مرِّيح: من المَرَح، وفي الريح: يقول جاء من عُلاوَةِ الريح، وإذا كانت الريح معه فهو أسرع له، اعتام الذئبُ: اختارَ من الغنم، لَجْبَة: هي التي أتى عليها من وِلادها أربعةُ أشهرٍ فخفَّ لبنُها، القَزَم: اللئيم من كلِّ شيء، حاشكة: حافل، ورهاء: كأنها مَجنونة، الرَّخَم: المَحَبَّة فإذا أحبَّت ولدَها فكأنها مجنونة من شدَّة حبِّها له، أو رميت من أَمَم، أي: من قصد، والأمم أيضاً: القرب، يقول: ما كان غير بعيد ولا قريب فهو بين ذلك.

(٢) ديوان الهذليين ١/١٧.

(٣) المرجع السابق ٢/٧٦.

(٤) حضارة العرب – جوستاف لوبون ص٤٥.

والحقّ أن هُذَيْلاً كانت تمتلك الإبلَ ولو أنَّ ذلك لم يكنْ على مَدَى واسعٍ، وبعبارةٍ أدقّ لم تكنِ الخيلُ شائعةً عندهم يمتلكُها كلُّ فردٍ من أفرادهم، فكان امْتلاكُ الخيلِ مقصوراً على الأغنياء والقادرين منهم، فالحقائقُ كلُّها تقرِّر أن هُذَيلاً لم تكن تهتم بالخيلِ اهتمامَها بالإبل، وفي نَظَري أنَّ هذا راجعٌ إلى شيئين، هما أن منطقةَ هُذَيْل لم تكن صالحةً في جملتها لتربيتها، لأنها جرداءُ صلبةٌ مُجْدبَةٌ، والخيل لا تكون إلا حيث الخِصْبُ وسهولةُ الأرضِ كما في نَجْدٍ والجوف، وأنَّ الخيلَ لم يكن يقتنيها سوى الأغنياء، فكانَ الجوادُ الواحدُ يعدل خمساً وعشرين ناقةً ويحتاج دائماً إلى الماء الكثير، وذلك ما يحول دون اقتناء الهُذَلي له. . . إلا أن هذا لا يعني مطلقاً جهلَهم بها أو عدمَ اقتنائهم لها، لا سيما الأغنياء منهم(١).

ونستطيعُ أنْ نستدلَّ على امتلاكهم للخيل واعتزازهم بها ـ بما روي مِن أنَّهم كانوا في الجاهلية يقولون في تلبيتهم إذا حَجُّوا:

لبَّيْكَ عَنْ هُذَيْلْ ... قَدْ أَوْلَجُوا بِلَيْلْ

في إبلٍ وخَيْلْ(٢)

ففي ذلك دليلٌ على امتلاكهم للخيلِ، ومكانتها عندَهم، وقد وصفَها شعراؤهم وصفاً جيداً، فهذا ساعدة بن جُؤَيَّه يصفُ الخيلَ السريعةَ عند قومه، ويصف الخيلَ وشدّتَها، وكيف أنَّ الفرسَ يهتزّ لرشاقته وخفَّته. . . يقول:

مِنْ كُلِّ فَجٍّ تستقيمُ طِمِرَّةٌ ... شَوْهاءُ أوْ عَبْلُ الجُزَارَةِ مِنْهَبُ

خاظِي البَضِيعِ لهُ زَوَافِرُ عَبْلَةٌ ... عُوجٌ ومَتْنٌ كالجَديلَةِ سَلْهَبُ

وحَوافِرٌ تقَعُ البَراحَ كأنَّما ... أَلِفَ الزِّماعَ بهاسِلامٌ صُلَّبُ

يَهْتَزُّ في طَرَفِ العِنانِ كأنَّهُ ... جِذْعٌ إذا فَرْعَ النَّخيلَ مُشَذَّبُ(٣)

---

(١) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٨٤، مع تصرف.

(٢) الأعلام للزركلي ٩/ ٧٣.

( ) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣/ ١١١٦ . الفجُّ: الطريقُ، الجُزارة: القوائم، طمرَّة: طويلة، الشوهاء من الخيل: المشرفة، منْهَب: كأنه يَنْتَهِبُ العدْوَ انتهاباً، زوافِرُ عَبْلَة: الزافرة: الوسَطُ يعني أنّ وسَطَه ضَخْمٌ، الجديلَةُ: حَبْلٌ مجدولٌ من سيورٍ أو شَعرٍ أو صوف، خاظِي البضيع، أي: ممتلئُ اللحم، سَلْهَبٌ: طويل، عَبْلَة: ضخمة، عُوجٌ: ضلوع متعطِّفَة، =

وكانت هُذَيْل تعتمد على السَّلْب والنَّهْب مصدراً من مصادرِ الثروات، فلم تكنِ الغارةُ أو النَّهْبُ والسَّلْبُ عيباً عندهم،بل كان كلّ ذلك يُعتَبرُ من مظاهرِ الشجاعة في طلب الرِّزْق، ولذلك كان وسيلةً من وسائلِ الثروات والأرزاق. وكان الغزوُ طَبْعاً من طبائع البدوِ، وعادةً من عاداتهم، فكانت القبائلُ البدوية تتبادل الإغارةَ لقَصْد السَّلْب والنَّهْب، فإذا ما غَزَت قبيلةٌ إحدى القبائل الأخرى، وسَلَبَتْ أموالَها وأَنْعامها، تقوم القبيلةُ الثانيةُ المُعْتَدَى عليها بأخذ ثأرها وردِّ شرفها، فتغزو القبيلةَ التي اعتدت عليها،وقد تستردُّ مالَها الذي سُلِبَ أو تَسْلُب أكثرَ مما سُلِبَ منها إذا حالفها الحظُّ وهكذا.

ومثال ذلك ما قامت به هُذَيْل من غزوِ سُلَيْمٍ، وكانت الغاراتُ والغزواتُ كثيرةً بينهما. ويُرْوَى أن بني صاهلة من هُذَيْل خرجوا لغزوِ بني سُلَيْم بن منصور،وهو بُرهاطٍ وسُمْيٍ فوجدوهم بسُمْيٍ خمسين بيتاً، وخرج رجالٌ من بني سُلَيْم يقعدون لحُمُرٍ بأسفلِ الوادي الذي هم به، فبيَّتَهم بنو صاهلةَ وأباحُوا دارَهم، ثم سمع رماةُ الحُمُرِ من بني سُلَيْم أُنَيْساً، فقالوا : كأنَّ الدارَ قد وَقَعَ فيها عدوٌّ ! ثم قال بعضهم لبعض:هو حسُّ الحُمُرِ واردةً، فغرَّهم ذلكَ ، حتى انتبهوا قُبَيْلَ الصُّبحِ وقد خَرجتْ بنو صاهلة بالسَّبْي من الليل، فأدركهم الطَّلَبُ من بني سُلَيْم، بقيادة سيّدهم كُلَيْبِ بن عَهْمَة، وكانوا قد فَرَغوا من أوَّلِ اللَّيلِ وهَرَبوا، إلا أن كُليباً جَدَّ في طلبهم حتى أدركهم وهو يرتَجزُ:

أنا كُلَيْبٌ ومَعِي مِجَنِّي
بازِلُ عامَيْنِ قَدِيمُ السِّنِّ
أضرِبُ رأسَ البطلِ المُعْتَنِّ
حتى يَميطَ في الخَلاءِ عَنِّي(١)

= تقع البراحَ: تقرعُه، والسِّلام، أي: الحجارة، أي كأنما أَلف زماعَها صخرةٌ من شدَّة الحوافر، البراح: المستوي من الأرض، والزِّماع: الشعرات اللاتي يكَنّ خلف الحافر، وصُلَّب: شداد، يريد أن يقول: كأنما لَزِمَ الزِّماع حجارةٌ مكان الحافر، إذا فرع النخيل، أي: إذا علاها، مُشَذَّب: مُنَقًّى.. يقول: يهتَزّ من حدَّته.

(١) المرجع السابق ٢ / ٧٦٩ المُعْتَن: المعترض، يميط: يذهب جانباً، الخلاء: الصحراء الخالية.

وحَدَث أن قَعَدَ له رجلٌ من هُذَيْل فرماه بسهم فقتَله،ورجع مَنْ كان معه من بني سُلَيْم، فقال في ذلك عبدُ بن حبيب شاعرُ بني صاهلة قصيدةً مطلعها:

ألا أبْلِـغْ يَمــــــانِيـنَا بِـأنَّا … قَـتَلْنَا أمْسِ رَجْلَ بَني حَـبـيبِ (١)

وكذلك ما قامتْ به هُذَيْل من غزوِ خُزاعة، ويتجلَّى فيه طمعُها في غزوِ جيرانها حبّاً في السَّلْب والنَّهْب، فتروى الأخبارُ أن بني سَهْم بن معاوية من هُذَيْل: قاموا بغزو خُزاعةَ برياسة سيِّدهم مَعْقِل بن خُوَيْلد، فأصابوا منهم داراً عظيمةً بلَفْت - وهي عَقَبَةٌ بطريق مكَّة - فأخذوا منهم نَعَماً وسَبْياً كثيراً، ثم ذهبوا يسوقون السَّبْيَ والنَّعَمَ حتى وصلوا الرَّجيعَ وهم مطمئنون، ثم تغاوثَ بنو كعبٍ من خُزاعة، فخرجوا بجمعٍ عظيم، حتى أدركوا مَعْقلاً وأصحابَه ببطنِ الرَّجيعِ قد أمنوا ووضعوا السلاحَ، وهم على ماء يغتسلون، فَعَدَتْ عليهم بنو كعب وهم على تلك الحالِ مُغْتَرُّون ،فقتلوا رَجُلَيْنِ يقال لهما: العَمْران، ثم وثبوا على مَعْقل وهو يَغْتَسِلُ، فواثبهم معقلٌ وقتلَ منهم ثلاثة إخوةٍ، بَني أبي صُرَدٍ، كلّهم أبطالٌ،يُعانقُه هذا ويَضْربُه هذان، ثم يعانقُه هذا ويضربه هذان،حتى والَى بينهم جميعاً في مَكانٍ واحدٍ، وكان القوم يقتتلون سوى ذلك.

قال الراوي: "فذلك يومَ يقولُ الخُزاعِيُّ : يا قَوْم ، أبتِ السيوفُ مَعْقلاً! وعانقه الآخرُ فقال: اقتلوني ومَعْقلاً! فارتجَعَتْ خزاعةُ سَبْيَهُمْ، وقدأصيبَ ناسٌ ، منهم الثلاثةُ الذين قتلَهم مَعْقِلٌ، وهم أَنَسٌ وأُنَيْسٌ، وخِذامٌ"(٢).

ويظهرُ أنَّ الدائرة دارت على هُذَيْل في النهاية، إذ أدركتهم خُزاعةُ وهم يغتسلون، فقتلوا منهم عدداً،ثم استردوا سَبْيَهُم وأنْعَامهم،ويروى أن معقلَ بن خويلدٍ قال في ذلك اليوم أبياتاً منها:

ألاَ هَلْ اتى أَبا صُـــرَدٍ مَكَرِّي … على أَنَسٍ وصاحِـبِـهِ خِـذَامِ
ولاءً عِنْدَ جَنبِـهِـمـا أُنَيْسٌ … ولَمْ أَجْـزَعْ مِن الموتِ الزُّؤامِ (٣)

---

(١) يمانينا: مَن كان من هُذَيْل في شقّ اليمن، رَجْلَ: رَجَّالة.
(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ /٣٧٧.
(٣) أَنَس وخِذام وأُنَيْس: أبناء أبي صُرَد، ولاء: أي موالاة، الزؤام: السريع الشديد.

ولا شك أنَّ الغزوَ لأجلِ السَّلْب والنَّهْب ، يتجلَّى بصورةٍ واضحة عند الصعاليك الذين جعلوا جُلَّ هَمِّهم في غزوِ القبائِل أو القوافلِ، فينهبونهم ويَسلُبونهم، فكانت أرزاقُهم في رماحهم، ومعاشُهم فيما بأيدي غيرِهم، وقد اشتهرت هُذَيْل بكثرةِ صعاليكها وذؤبانها على ما سيأتي بيانه في الفصلِ القادم.

وكان صيدُ الحيوان في الصحراء مصدراً أساسياً للحياة عند هُذَيْل، فأنواع الحيوان من حُمُر وأُتُنٍ وبقر وثيران وغيرها من الحيوانات كانت مصدراً لرزقها، غير أنه يبدو أن الذين اعتمدوا على صيد الحيوان في حياتهم كانوا من الفقراء ، ومن الذين أصابَهمُ الشَّظَفُ والعَوَزُ وسوءُ الحالَ . ويَزْخَرُ الشِّعْرُ الهُذَلي بقطعٍ كثيرة يصف فيها الشعراءُ مناظرَ الصيد، وخاصَّة أشعارَ أبي ذُؤَيب وساعدة بن جُؤيَّة، وأبي خِراشٍ، وصخر الغَيّ وغيرهم من شعراء هُذَيْل،فأشعارُهم حافلةٌ بأحاديثِ الصيد ووصفِ الحيوان وكيفية اقتناصه، وكثيراً ما تضمَّنَت أشعارُهم قصصاً عن الصيدِ وأحداثه،وهي قِصصٌ تَحْمل النَّغَم الحزينَ المُؤثِّر، حيث تصور حالَ هذه الدنيا الفانيةِ،التي لا يبقى على حَدَثانها أحدٌ، وذلك كما فَعَل أبو ذؤيب في عينيته التي رثى فيها أولادَه ، فتكلَّم فيها عن صيدِ الحمار الوحشيِّ والبقرِ الوحشيِّ، واتَّخذَ فيها الصيدَ مادةً للَوحتهِ المؤلمةِ، وقصيدتهِ المُحْزِنَة.

ومن المعروف أن وَصفَ الصيدِ كثيرٌ في أشعارهم ، وهذا صخرُ الغَيِّ - على سبيل المثال - يصفُ وعلاً مُسناً وكيفية اصطياده، فيصفُ الوعلَ في تَيْهُورة تحت السحاب، وفي موضعٍ مُخْصب قد أصابه المطرُ، واستطاعَ فيه أن يتمتَّعَ بطولِ الحياة،فشبَّ مع الأيامِ وطالَ عُمْرُهُ ، حتى أشْرَفَ قرنُه وتَثَنَّى، وهو يصفُ الوعلَ كانساً إذا أبصرَ اللَّيلَ، ويشبِّه مبيتَهُ بمبيتِ رجلٍ كبيرٍ عليه كساؤُه،قد حاربَ أهلَه، أي : عاداهُم وتنحَّى عنهم . . . يقول:

أَعَيْنَيَّ لا يبقَى على الدهرِ فادرٌ ... بتَيْهُورَةٍ تحتَ الطِّخَافِ العَصائبِ
تَمَلَّى بها طولَ الحياةِ فقَرْنُهُ ... له حِيَدٌ أشرافُها كالرَّواجبِ
يبيتُ إذا ما آنسَ الليلَ كانساً ... مَبيتَ الكبيرِ ذي الكساءِ المُحارِبِ
مبيتَ الكبيرِ يشتكي غيرَ مُعْتَبٍ ... شفيفَ عُقوقٍ من بنيهِ الأقارِبِ
تَدلَّى عليهِ من بَشامٍ وأَيَكةٍ ... نَشاةِ فُروعٍ مُرْثَعِنٍّ الذَّوائبِ

بها كانَ طِفْلاً ثم أَسْدَسَ واستَوَى ... فأصبَح لِهْماً في لُهُومٍ قَراهِب

يُرَوَّعُ مِن صوتِ الغرابِ فَيَنْتَحِي ... مَسامَ الصّخورِ فَهْوَ أهرَبُ هارِبِ (١)

ثم يحدثنا عن الوعلِ وقد قَدرَ له صائدٌ يكسبُ لأبيه الشيخِ الذي احْدَوْدَبَ ظهرُه وتَحَنَّتْ عظامُه، ويحدثنا عن أمرِ الصائد الذي يحمي شيخَه من كلِّ أذى، ثم يرسُمُ صورةً دقيقةً واضحةً لانتهاء حياة الوعلِ على أيدي ذلك الصياد الذي رماه بسهمٍ عريضٍ واسعِ النصلِ فقتله. يقول:

أُتيحَ لَهُ يوماً وقد طالَ عُمْرُهُ ... جَريمةُ شَيْخٍ قد تَحَنَّبَ ساغِبِ

يُحَامَى عليه في الشتاءِ إذا شَتا ... وفي الصيف يَبْغِيه الجَنا كالمُناحِبِ

فلمـا رآهُ قـالَ لِلَّهِ مَنْ رأى ... مِن العُصْمِ شاةً قَبْلَهُ في العَواقِبِ

لو أنَّ كَريمي صِيدَ هذا أَعاشَهُ ... إلى أنْ يَغيثَ الناسَ بعضُ الكواكبِ

أحـاطَ به حتى رماهُ وقد دَنا ... بأسْمَرَ مَفْتُوقٍ من النَّبْلِ صائِبِ (٢)

واشتهرتْ قبيلةُ هُذَيْل بتربية النَّحْل واشْتيارِ العَسَل، وفي أشعارِهم الكثيرُ من المقطعات التي يصفُ بها الشُّعراء النَّحْلَ وسعيَه في الأرض، بحثاً عن

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١ / ٢٤٦. الفادرُ: الوعلُ المُسنُّ، التَّيْهُورَة: ما اطمأن من الرملِ، الطِّخَاف: ما رقَّ من الغيم، العصائب: مُتَقَطِّعٌ عُصْبَةً عُصْبَةً، تَمَلَّى: تمتَّع، فقَرنه له حيَدٌ: هو ما نتأَمنه، وشبَّه قرنَه بالرَّواجِب، والرواجب: ما نتأَمن أصولِ الأصابع إذا ضَمَمْتَ كَفَّكَ، وحيَدٌ: جوانبٌ، وهي دوائر في القرن وعُقَد كذلك، إشرافَها: إشراف القرونِ، غير مُعْتب: لا يُطلَب رضَاه لأنَّهم استخفّوا به، والعُقوق: القطيعة، الشَّفيف: الوَجَع والأذى، من بشَامٍ: مِن شجرٍ، والأيكة: الغيضة، والنَّشاةُ: الشجرة اليابسة. مُرْثَعِنّ: مُسْتَرْخِي، الذوائب: الأغصان، أسدسَ: وقعَ سَديسُه، وهو السّنّ التي تلي الرَّباعيَة، في لُهومٍ، أي: أَوْعالٍ مَسانَّ، قَراهِب: مَسَانٌّ كذلك والواحدُ قَرْهَبٌ، فينتحي: يَعْتَمِد، لأنه يُرَوَّعُ مِن كلِّ شيء يسمَعُه، مسامَ الصخور: مَمَرّه في الصخور.

(٢) أُتيح له: قُدرَ له، جريمة شيخ: كاسِبُ شيخٍ، أي: صائدٌ يَكْسِبُ لأبيه، قد تَحَنَّبَ: يعني الشيخ، وقد أحدودَب، وساغبٌ: جائع، يبغيه الجنا: ما اجتنى مِن الثمر، المُناحِب: المجاهد، النَّحْب: النَّذْر، العُصْم: الأرْوَى، وعَصَمُها: خطوط في يديها، العواقب: مآخير الزمان، كريمه: يعني شيخَه، أحاط به، أي: الصائد، بأسمر مفتوق: يعني بسهم مُخَلَّقٍ، مفتوق من النبل: يعني سهماً واسع النصل، والنصل: العريض، صائب: قاصد أو سريع.

obeikandi.com

الأزهار والأشجارِ التي يمتصُّ رحيقَها، وتحدثوا كثيراً عن مواطن العَسَلِ، وكيف يَشْتارونه بالحِبال مِن شماريخِ الجبالِ وشعابها، ثم ما يكابده المشتارُ من تعبٍ ومشقَّة، وما يتعرض له من أخطار. وذكر الجاحظ أن الأعرابَ أعرفُ بكلِّ صمغةٍ سائلة وعسلةٍ ساقطةٍ، وأنَّ أهلَ تِهامة وهُذَيْلاً وضواحي كِنانة هم أصحاب العَسَلِ(١).

واشتيارُ العسلِ كان سائداً في منطقة السَّراة بين مكَّةَ والطائف التي تسكنُها هُذَيْل، وتعليل ذلك أن هذه المنطقة فيها الكثيرُ من الجبالِ العالية المَكْسُوَّة بالأشجار والأزهار،فتجذب إليها النحلَ،لما فيها من مواردِ الماءِ التي تنبتُ على حوافِّها ألوانٌ مختلفةٌ مِن الزَّهْرِ(٢).

وكان اشتيارُ العسلِ يُعتَبرُ من المُخاطرة والمشقَّة بمكانٍ، وكان يُعَرِّضُ المشتارَ في بعضِ الأحيان للموتِ والهَلاك،وذلك كما يصوِّرُه شِعْرُهم. وذكر بعضُهم كيف أنَّهم كانوا يتعرَّضون من أجلِ ذلك لألوانٍ شتَّى مِن المخاطرِ والصعوبات، وكيف أنَّ تأَبَّطَ شَراً كانت له غزواتٌ وصَوْلاتٌ مستديمةٌ لأحدِ جبالِ بني لِحْيان، حيث كان يأتيه كلَّ عامٍ يشتارُ منه العَسَلَ في الخَفاء.

يقول ابن حبيب: " أتى-تأبطَ شرّاً -جبلاً في بلاد بني لِحْيان من هُذَيْل يَشْتارُ منه عَسَلاً، وكان يأتيه كلّ عامٍ،وكان ذلك الجبلُ مُنفرداً ، وأنه أتاه وقد وضَعوا عليه الرَّصَدَ، وكان معه نفرٌ من أصحابه، فدَلَّوا حبلاً لهم، فتوصل به تأبطَ شرّاً حتى وصلَ إلى الغارِ الذي فيه العَسَلُ، ودَلَّوا إليه الأسقيةَ، وذلك بأعينِ الهُذَليين، حتى إذا قَرَّ قرارُه خرجوا على القومِ فانكشفوا وتركوه في الغارِ.

فوقفوا على الغَارِ، فنادَوْه، فأطلَعَ رأسَه فقالوا: اصْعَدْ ! قال:على ماذا أَصْعَدُ؟ قالوا: تصعدُ فنرى فيكَ رأينا! قال:إن كنتم إذا صَعَدْتُ أَمِنْتُ من أنْ تقتلوني، وقَبِلْتُم اليسيرَ من الفداء مني، صَعَدْت تأكلون العسلَ الذي اشْتَرْتُه؟ قالوا نعم: قال: لا والله لأجمعتُم على قتلي وأكلِ عسلي. وجعلَ يصُبُّ العسلَ، وهم يتعجبون ويضحكون، حتى إذا فَرِغَ وأَطرد النَّحْلَ فأبعد، أخذ زِقاً فشدَّه على صَدْرِه ثم انحدرَ

---

(١) الحيوان للجاحظ ٥ / ٤٢٦ .

(٢) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٨٦.

في العَسَلِ، فلم يَزلْ يَزْلُقٌ به حتى وقع بالأرض وبينهم ثلاثة أميال، ثم انطلقَ فرجعَ إلى أهله(١).

وإذا أردنا أن نلتمَس ذلك في أشعارِ هُذَيْل ، فإننا نجدُ فيها الكثيرَ من الأشعارِ التي تحفُلُ بذكر الاشتيار، وما يعتريه من التعب والنَّصَب ومن المخاطرِ والصعوبات، فهذا أبو ذؤيبٍ يصفُ رجلاً يشتارُ العسلَ، فيقول: رُبَّ أشعث كل ما يملكه من مال فضلات ثول ـ أي عسل نحل ـ على مهلكة ، لأن ذلك العسل كان على هضبة ملساء لا يسترها شيء وهو يرسم صورة واضحة ودقيقة لذلك الرجل الفقير المعدم، فهو ضامر ونحيل، وهزيل البدن، ولكنه قوي وشديد البأس،تدرب على صعود الجبال حتى يقف دُوَيْن الشمس، ويصف ذلك العَسَّال بأنه قد تأبط خريطة فيها سقاء العسل، وصار يتتبع الحبل المربوط بالشِّيقِ وهو أعلى الجبل عند نزوله إلى موضع العسل، فهو يصل إلى ما يريد ،ثم يرجع سالماً فيقول:

وأَشْعَثَ مالُه فَضَلاتُ ثَوْلٍ   على أركانِ مَهْلَكَةٍ زَهُوقِ
قليلٍ لَحْمُهُ إلا بَقَايَا   طَفَاطِفِ لحْمٍ مَنحُوضٍ مَشيِقِ
تأبَّطَ خافةً فيها مسَابٌ   فأضحَى يَقْتَرِى مَسَداً بشِيقِ
على فَتْخاءَ يعلمُ حيثُ تَنْجُو   وما في حيثُ تَنْجُو من طريقِ
وكانَتْ وَقْبَةً في رأسِ نِيقٍ   دُوَينَ الشمسِ ذاتَ جَنًى أَنيقِ
فَيَمَّ وَقْبَةً أَعْيَا جنَاهَا   على ذي النِّيقَةِ اللَّبِقِ الرَّفيقِ
فجاءَ بها سُلافاً ليس فيها   قَذىً ، صَهْبَاءَ تَسْبِقُ كُلَّ رِيقِ (٢)

---

(١) المحبَّر لابن حبيب ص١٩٧ (نقلاً عن شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٨٦).

(٢) ديوان الهذليين ١ /٨٧، وكتاب شرح أشعار الهذليين ١ /١٨٠جماعة النحل، مَهْلَكَة زهوق: هضبة ملساء، مشيق: ضامر، المَنْحوض: القليل اللحم، الطَّفاطف: ما استرخى من جانبي بطنه عند الخاصرة، تأبَّطَ خافةً: جعلها تحت إبطه، والخَافة: خريطة من أدم ضيقة الأعلى واسعة الأسفل يشتار فيها العسل، فيها مسَاب: أراد مسْأَبٌ وهو السِّقاء. يَقْتَري: يتتبع، مَسْداً: حبلاً، الشيق: أعلى الجبل، وفي اللسان: ويقال الشيق هو أصعب موضع في الجبل، على فتخاء: يريد يَقْتَرِي على فتخاء وهي يدُه فيها فتخ أو لين. الوَقْبَة: كالكهف في الجبل، جنى: يعني العسل، النيقة: الذكاء والحذق، وصهباء يعني العسل.

obeikandl.com

وهذا ساعدةُ بن جُؤَيَّبه يصفُ رجلاً يشتارُ العسلَ ، ويحملُ معه سقاء وأعواداً حتى يُخْرِجَ بها العسلَ من وَقْبَتِه ، وكيف أنه دَلّى حبالاً حتى يصعد عليها ثم ينزل بها، ويحدّثُنا كيف مضى ذلك الرجل حتى وصل إلى القمة ووقف على شمْراخ من شماريخ الجبلِ، وكيف أن تلك الطَّغْيَة ـ شمراخ من شماريخ الجبل ـ كانت ناعمة ملساء لا تستطيع العقاب الوقوف عليها، لأن مخالبها لا تثبت عليها لملاستها . . . يقول:

مَعَهُ سقاءٌ لا يُفَرِّطُ حَمْلَهُ ... صُفْنٌ وأخْراصٌ يَلُحْنَ ومِسْأَبُ

صَبَّ اللَّهِيفُ لها السُّبوبَ بِطَغْيَةٍ ... تُنْبِي العُقابَ كما يُلَطُّ المِجْنَبُ

وكأنَّهُ حينَ اسْتَقَلَّ بِرَيْدِها ... من دُونِ وَقْبَتِها لَقاً يَتَذَبْذَبُ

فقضَى مَشارَتَهُ وحَطَّ كأنَّهُ ... خَلَقٌ ولم يَنْشَبْ بها يَتَسَبْسَبُ

فأزالَ ناصِحَها بأبيضَ مُفْرَطٍ ... من ماءِ ألهابٍ عليه التَّأْلَبُ (١)

وهذا أبو ذُؤَيْب يتحدَّث عن العسل واشْتياره،وكيفية الحصول عليه بالحبال من فوق قمم الجبال، التي تقصُر الصقور عن بلوغها، وما فيها من صعوبات محفوفة بالمخاطر،وأنه لو كانت المسافة بمقدار ثمانين قامة للإنسان، وكان ذلك طول الحبل،لابتغاها بيده ،ونالها بأنامله، يقول:

وما ضَرَبٌ بيضاءُ يأْوِي مَليكُها ... إلى طُنُفٍ أَعْيَا بِراقٍ ونازِلِ

تُهالُ العُقابُ أن تَمُرَّ بِرَيْدِهِ ... وتَرْمِي دُرُوْءٌ دُونَه بالأجادِلِ

تَنَمَّى بها اليَعْسُوبُ حتى أقَرَّها ... إلى مَأْلَفٍ رَحْبِ المَباءَةِ عاسِلِ

---

(١) المرجعان السابقان الأول ١ / ١٨٠ والثاني ٣ / ١١١١-١١١٢ لا يفرِّطُ حَمْلَه: لا يغادرُ سقاءَه، الأخراص: أعوادٌ يُخْرِجُ بها العسلَ، والصُّفْن: شيء مثل السُّفْرَة يُسْتَقَى به الماءُ، صَبّ: دَلّى حبالاً له يربطها في شيءٍ ثم يتدلّى، والسُّبُوب: الأسبابُ وهي الحبالُ والطَّغْيَة: شمْراخٌ من شماريخِ الجبلِ، المجْنَب: التُّرْسُ والملطوط: المُسَوَّى، يُلَطّ: يُسْتَرُ، الرِّيدُ: شبيهٌ بالحيد، اللِّقا: ثوب خَلَق، وَقْبَتُها: خَرْقُهَا من أعلاها إلى أسفلها، الوَقْبُ: النَّقْب في الجبل. يتذبذب: يتطوَّح، لم يَنْشَب: لم يَعْلَقْ وانخرَطَ مُنْحطّاً كأنه ثوبٌ خَلَقٌ، يَتَسَبْسَب: يَنْسَلّ. ناصحها: خالصها، من ماء ألهاب: اللهب: مهواةٌ في الجبلِ وهو شقّ في الجبل. والتَّألَب: شجرٌ، يريد أنه لم يعلق بالعسلِ السائلِ ولم يتلطخ به، فيصفه بالخفة والنشاط والقوة على استخراج العسلِ من الوَقْبَة، وكيف أنه قطعَ خالصَ العسل ومزجَه بماءٍ من غديرٍ هناك.

فلو كـان حَبْلٌ مِن ثمانِينَ قـامَـةً   وتسـعينَ باعـاً نَالَهـا بـالأَناملِ
تدلَّى عليـهـا بالحِـبـالِ مُـوَثَّقـاً   شَـديدُ الوَصَـاةِ نابِلٌ وابنُ نابِلِ
إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لم يَرْجُ لَسْعَهـا   وخـالفَهـا في بيتِ نُوبٍ عَـوامِلِ
فَـحَطَّ عليْـهـا والضُّلوعُ كـأنَّهـا   مِن الخوفِ أمثالُ السِّهامِ النَّواصِلِ (١)

ونراه في مَوضعٍ آخر يتحدَّث عن عَسَل النَّحل الأبيَضِ الذي فُتِن به، وتراه يشبِّه العسلَ لشدة بياضه ببياض الأسنان، فيقول:

فـجـاءَ بِمَـزجٍ لم يَرَ الناسُ مِـثْلَهُ   هو الضَّـحْكُ إلا أنَّه عَـمَلُ النَّحْلِ
يَمـانِيَـةٍ أَحْـيـا لَهـا مَظَّ مَـأْبِدٍ   وآلَ قَـراسٍ صَـوْبُ أَرمِـيَـةٍ كُـحْلِ (٢)

وهكذا نرى أنّ مصادرَ الثروات عند هُذَيْل كانت متعددةَ الجوانب، ومختلفةَ الميادين، ومن الحقِّ أنه كان للحياة عند هُذَيْل وجوهٌ شتَّى وفنُونٌ متباينةٌ، ولسنا نَغْلُو إذا زَعْمنا أنَّها كانت تلائم بين ما تريدُ وبين ما هو كائن، فإن كان رَعْيٌ رَعَتْ، وإن كانت تجارةٌ تاجرت، وإن كان غَيْرُ هذا وذاك فهي مكيفة ظروفَها لما هو موجودٌ(٣).

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/١٤٢. مَليكُها: هو يَعْسُوبُها وفَحْلُها الطُّنُف: حَيْدٌ من الجبل يَنْدُر ورأسٌ من رؤوسه، الضَّرَبُ: العسلُ الأبيضُ الصُّلْبُ، الريدُ: ما نتأ من الجبل، الدُّرُوء: الشاخصُ من الجبل، الأجادل: الصقورُ جمع أَجْدَل، عاسل: كثير العسل، تَنَمَّى، أي: تَرَفَّع، أقرَّها: أنزلها وأسكنها. المباءة: المنزلُ، المَـألف: المكان الذي تألَفه، شديدَ الوَصاة، أي: شديدُ الحفاظ لما أُوْصِي به، وقال أبو عبيدة: أي: يُوصيهم بالحَبْلِ أنْ شُدّوه وأمْسكوه واحتفظوا به، نابل: حاذق، لم يَرْجُ لسْعَها: لم يَخَفْ ولم يُبالها، خالَفَها، أي: جاء إلى عَسَلها وهي غائبةٌ تَرْعَى وقد سَرَحَت، نُوبٌ: تنتاب المَرْعَى فتأكل ثم ترجع فتُعَسِّل، عوامل: تعمل العسلَ والشمع، فحطَّ: انحدرَ وضلُوعُه تَرْجُف من الخوف وحَذَرِ السُّقوط، فشبه ضلوعه وهي ترجف بسهامٍ قد نُصِلَت من قُطَبها. والسَّهْم: إذا لم يكن فيه نصلٌ لم يَسْتَقِم في ذهابه واضطربَ، فشبَّه اضطرابَ ضلوعه بذلك.

(٢) المرجع السابق ١/٩٦. الضَّحْك: ذكر الأصمعي أنه الثغرُ الأبيضُ، فشبَّه بياضَ العسل به لشدة بياض العسل، المَظُّ: الرُّمان البَرِّي الذي تأكله النحلُ وهو يَعْقِدُ ورقاً ولا يكون رماناً، آل قَراس: موضع، ويقال إنه جبل بارد، الصَّوْب: صوبُ المطر، مَأْبد: موضعٌ، والأَرْمِيَة والأسْقِية: سحابتان من سحائب الحميم والخريف، وهما شديدتا القَطْر والوَقْع إذا مَطَرَتا، كُحْل: جمع أكْحَل وهو الأسود.

(٣) شعر الهذليين د. أحمد كمال زكي ص٨٥ بتصرف.

obeikandl.com

وكان مِن هُذَيْلٍ الأغنياءُ الذين ملكوا الآبالَ والأغنامَ والخيولَ، وكان منهم كذلك الفقراء الذين لا يملكون شيئاً،فقد كان فيهم بعض الأثرياء مثل جُنْدُب بن الحارث الذي كان كثيرَ المال، ويقال: إنه كان أكثرَ أهلِ بلادِهِ مالاً، وكان رجلاً سَلْماً للناسِ كلِّهم، ولذلك كان يُدْعَى "النُّوَيْعِم" لنِعْمَته(١).

كما كان عندَهم الفقراءُ الكثيرون الذين أصابَهم الذُّلُّ من شدَّة فَقْرهم وفاقَتِهم، فهذا مالكُ بن الحارث يَتَبَرَّمُ من الفقرِ ويذمُّه ،ويذكر أنَّ أصحابَ المالَ يُثْنَى عليهم وإنْ قَبُحَتْ وجوهُهُم، لأنَّ المالَ يزينُهم ،ثم يذكر أن الفقراءَ يحترمون الأغنياءَ ويُجِلُّونَهم وقد يسجدون لهم، ولو أنهم لم ينتفعوا بمالهم، يقول:

رأيْتُ مَعاشِراً يُثْنَى عليْهِمْ ... إذا شَبِعُوا وأَوْجُهُهُمْ قِباحُ

يَظَلُّ المُصْرِمونِ لهم سُجُوداً ... وإنْ لَمْ يُسْقَ عِنْدَهُمُ ضَياحُ (٢)

فلا عجبَ أن يكونَ عندَهم كثيرٌ من الفقراءِ، فالحقّ أن بيئَتَهم كانت قاسيةً جداً، فقد تَجَشَّمُوا حياةَ الصحراءِ، وما فيها مِن صعوبات، وسكنوا فيها الخيامَ،ومارسوا حياتَهم البدويةَ، بل إن بعضَهم كان في العراء، كما صوَّر ذلك حبيبٌ الأعلمُ حين صَوَّر أولادَه الصغار الذين تركهم في الصحراء لا يملكون قوتَهم، ولا ينظرُ أحدٌ إليهم، فهو يخاف عليهم الجوعَ، ولكنه مع ذلك يأمل في أهله وقرابته ،أن ينظروا إليهم ويعطفوا عليهم،ويأتوهم بشيء يقتاتونه، ونراه في أبياته يشبه أطفاله بالجحاش الصغارِ من أولادِ الحميرِ، وهي صورةٌ مؤلمةٌ حَقّاً، يقول:

وذَكَرْتُ أَهْلِي بالعَراءِ ... وحاجَةَ الشُّعْثِ التَّوالِبْ

المُصْرِمِينَ مِنَ التِّلا ... دِ اللاَّمِحينَ إلى الأقارِبْ

وبِجَانِبَيْ نَعْمَانَ قُلْتُ ... أَلَنْ تُبَلِّغَنِي مَآرِبْ (٣)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٢ / ٨٤٤.

(٢) المرجع السابق ١ / ٢٣٨. الضياحُ: اللبنُ الرقيقُ الكثيرُ الماءِ، المُصْرِمون: المقِلّون، لهم سجوداً، أي: يُعَظِّمونَهم.

(٣) المرجع نفسه ١ / ٣١٥. العراء: الصحراء والمراد بالشُّعْث ولَدُه. التوالب: الجحاش، المُصْرِم: المُقِلُّ الذي لا مالَ له، التلادُ: المالُ القديمُ. نَعْمَان: موضع في بلادِ هُذيل، مآرب: حوائج.

وهذا أبو خِراش يحدِّثنا عن امرأته، وإعجابها ببعض الأغنياء، وانصرافها عنه لفاقَته وعَوزه، ويذكر أنّها قالت له: لولا أنني ابتليتُ بك وتزوجتُكَ لتزوجتُ رجلاً سيِّداً سواك، فيقول:

رأتْ رجلاً قدْ لوَّحتْهُ مخامصٌ ... وطافتْ بِرنَّانِ المَعدَّيْنِ ذي شَحْمِ
غَذيٌّ لِقاحٍ لا يزالُ كأنَّهُ ... حَميتٌ بِدَبْغٍ عَظْمُهُ غيرُ ذي حَجْمِ
تقولُ فلولا أنتَ أُنكحْتُ سَيِّداً ... أُزَفُّ إليه أو حُمِلْتُ على قَرْمِ
لَعمري لقدْ مُلِّكْتِ أَمْرَكِ حِقْبَةً ... زماناً فهلاّ مِسْتِ في العَقْمِ والرَّقْمِ (١)

وكانت هُذَيْل - كسائر العرب - تتمسك بالقيمِ والتقاليد العربية، من الكرمِ والجُودِ وإكرامِ الوفود والضيفان، وفي أشعارهم الكثيرُ مما يصور ذلك، وكان الإخلال بتقاليد الضيافة، أو التقصير في واجب الضيفان، يثير الشُّعراء فيعبرون عن شعورهم، ويرفعون أصواتهم مُوضِحين آراءَهم بكلِّ صراحةٍ في وجهِ ذلك التقصير إزاء القيمِ والأخلاقِ العربية النبيلة.

فهذا المُتَنَخِّل الذي كان قد نَزَلَ بقوم فَجُفِيَ، وكان قِراه عندهم الحِتِيَّ وهو سَوِيْقُ المُقْل - وهو ما تسميه العامة: الدَّوْم - فقال شعراً في ذلك، ينتقد فيه تلك الحادثة، وذلك التقصير في واجب الضيفان، ويذكر أنه لو جاءه رجل جائع ومهتلك لقام بواجب ضيافته وإكرامه خير قيام، ثم ذكر أن فعلهم هذا يعتبر إهانة له، وأن إهانة الرجل تؤثر فيه تأثيراً شديداً ويشعر ويحس بها كتحزيز جلده أو جسده بالسيف.. أي: يشعر به ويجد وجعه كما يشعر بوجع حزٍّ في جسده .... فيقول:

لا دَرَّ دَرِّي إنْ أَطْعَمْتُ نازِلَكُمْ ... قِرْفَ الحِتِيِّ وعندي البُرُّ مَكْنُوزُ
لو أنَّهُ جاءَني جَوْعانُ مُهْتَلِكٌ ... من بُؤَّسِ الناسِ عَنْهُ الخيرُ مَحْجوزُ
أعْيا وقَصَّرَ لمَّا فاتَهُ نَعَمٌ ... يُبادِرُ الليلَ بالعَلْيَاءِ مَحْفُوزُ

---

(١) ديوان الهذليين ٢: ١٢٨ لوحَتْه مَخامص: غيَّرته مجاعاتٌ، بِرنَّان المَعَدَّيْن، أي: إذا ضربَ مَعَدَّيْه أرنّا من صفائهما وصلابَتهما فسمعتَ لهما صوتاً، والمَعَدّ ما تحتَ العضد، وقال بعض اللغويين: إن مَعَدَيّ الإنسان جنباه، الحميت: النِّحْيُ يُرَبُّ فإذا رُبَّ فهو شديد، بِدبْغ، أي: جديد لم يستعمل، قرم: فحل يربى ولم يستعمل، العقم والرقم: نوعان من الوَشْيِ.

إلى أن يقول:

يا ليْتَهُ كان حَظِّي مِن طعامِكُمَا … أنّي أَجَنَّ سَوادي عنكُمَا الجِيزُ

إنَّ الهَوانَ فلا يَكذبْكُما أَحَدٌ … كأنَّهُ في بياضِ الجلد تَحْزيرُ

يا ليْتَ شِعْري وَهَمُّ المَرْءِ يَنْصِبُهُ … والمرءُ ليسَ له في العيشِ تَحْريزُ

هل أَجْزِيَنَّكُما يوماً بقَرضِكُمَا … والقَرْضُ بالقَرْضِ مَجْزِيٌّ وَمَجْلُوزُ (١)

وهذا الأعلمُ الذي نزلَ عندَ رجل - من بني زُلَيْفَةَ بنِ صُبْح بن كاهِل بن الحارث ابن تميم بن سَعْد بن هذيل - يقال له حُبْشِيٌّ، وكان مع الأعلمِ أولادُه الصغار فلم يُضِفْه ولم يَقْرِه، ولم يصنعْ به خيراً، فقال الأعلمُ في ذلك:

تَرَوَّحْتُ حُبْشِياً فأترحَ إلْدتي … كما زُحْزِحَتْ عند المَبَارِكِ هيمُهَا

أَحُبْشِيٌّ إنا قَدْ يُمَتِّعُنَا الغِنَى … بأمْوالِنَا نُريحُهَا ونُسيمُهَا

ونَحْبِسُهَا على العظائم نَتَّقي … بها دَعْوَةَ الداعينَ إنا نُقيمُهَا

إذا النُّفَساءُ لم تُخَرَّسْ بِبِكْرِهَا … غُلاماً ولَمْ يُسْكَتْ بِحَتْرٍ فَطيمُهَا

أَحُبْشِيٌّ لم تَشْمَتْ أوانَ شَماتَةٍ … وللدَّهْرِ أيامٌ رِغابٌ كُلُومُهَا

جزَى اللهُ حُبْشِيّاً بما قالَ أَبْؤُساً … بما رامَ أشْياءً بِنا لا نَرومُهَا (٢)

---

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ٣ / ١٢٦٣ قَرْفُ الحَتِيِّ: يعني قِشْرَهُ والحَتِيّ: المُقْل وهو الدَّوْمُ، مُهْتَلك، أي: يَهْتَلِك على الشيء لا يتمالك دونه، تعجيز: تقصير، مَحْجُوز: حُجِز عنه، أعيا: كان مع نَعَمٍ ففاتته النَّعَمُ وأعيا عنها، يَحفزُ: يَدفَع من خَلْفه، والعلياء: كلُّ مكان مرتفعٍ، والجيز: شِقّ الوادي الذي أنت في غيره، يُنْصِبُه: يُشْخِصُه والصواب يتعبه، مَجْلوزٌ به، أي: مربوط به حتى يُجْزى به.

(٢) المرجع السابق ١ / ٣٢٦. تروحت: رُحْتُ إليه، أَتْرَحَهُم: أشقاهم وحَرَمَهُم، زُحْزِحَتْ: نُحِّيَتْ، الهُيام: داء يصيب الإبل من نبت تأكله فلا تروى من الماء حتى تموت، نريح أموالنا، أي: بالعشى إلى مباءَتها، ونسميها: إلى مراعيها في الغداة، نحبسها، أي: على الأضياف وما ينوبُنا. نقيمها: نُعدُّها، الخُرْسَةُ: طعام الولادة، الحَتْر: الشيء القليلُ، رِغابٌ: واسعة كثيرةٌ، كلومُها: جراحاتُها وآفاتها، أبْؤُساً: شرّاً، رام: طلب وأراد.

obeikandl.com